

سُورَةُ الْحَاقِقَةِ

حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ



تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السِّلَامِيِّ

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةُ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

كيف نقرأ سورة الحاقة؟

هذا الكتاب ليس تفسيراً جامعاً لسورة الحاقة بالمعنى الاصطلاحي الذي يستقصي وجوه الإعراب والقراءات وأقوال المفسرين ومسالك الترجيح، ولا هو محاولة لإحلال التأمل الأدبي محل التفسير المأثور، وإنما هو قراءة تدبرية تأملية تنطلق من المعنى الذي دلّ عليه النص، وتستضيء بسياقه ونظمه وألفاظه، ثم تفتح للقارئ ما وراء الدلالة المباشرة من آثار إيمانية ونفسية وأخلاقية؛ فالغاية ليست أن نُجمل الآية ما لا تحتل، بل أن نسمح لما تحتمله من الهداية أن يبلغ القلب كاملاً، وأن نتقل من سؤال: ماذا تقول الآية؟ إلى سؤال تالٍ لا يقل أهمية: ماذا تصنع هذه الآية في رؤيتي لله، وللدنيا، ولنفسي، وللمصير؟

وقد اقتضت طبيعة سورة الحاقة أن يكون مسار هذا الكتاب قريباً من بنائها القرآني نفسه؛ فهي سورة لا تسير في موضوعات متناثرة، بل تتقدم في حركة شديدة الإحكام: تبدأ باسم

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

القيامة ﴿الْحَاقَّةُ﴾، ثم تستدعي التاريخ ليشهد على مصائر التكذيب، ثم تنقل القارئ من سقوط الأمم إلى سقوط النظام الكوني المألوف، ومن دك الأرض وانشقاق السماء إلى عرض الإنسان وكشف الحافية، ثم تضعه أمام كآبه، وتفرّق بين صاحب اليمين وصاحب الشمال، وتكشف أن فساد المصير لم يبدأ يوم القيامة، بل بدأ من خلل أقدام في القلب: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾، ثم تعود في خاتمتها إلى القرآن نفسه، فتقرر مصدره، وأمانه مبلغه، وحقيقته التي لا يدخلها الشك: ﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، قبل أن تغلق السورة دائرتها بالتسبيح: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

ولهذا التزم هذا الكآب ترتيب السورة، ولم يفصل آياتها عن سياقها العام، لأن معنى الآية في القرآن لا يستنفد بمجرد شرح مفرداتها؛ كثير من جمالها يتولد من موضعها، ومن الآية التي سبقتها، ومن الصورة التي تهيئ لها، ومن التحول الذي تصنعه في بنية السورة. فقول الله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾ لا يُقرأ هنا منفصلاً عن مشهد الكآب بالشمال، ولا عن وصف عاد وثمود وفرعون من قبل؛ إن السورة تبني منذ أولها فكرة واحدة تتكرر بأشكال متصاعدة: كل قوة يتكئ عليها الإنسان من دون الله ستعود يوم الحاقة إلى حجمها الحقيقي. ومن هنا كان التدبر في هذا الكآب عنايةً بالخيط الذي يصل الآيات بعضها ببعض، لا استخراج خواطر متفرقة من كل آية بمعزل عن جاراتها.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وسيالاحظ القارئ أن هذه القراءة تعتمد كثيراً على حركة الألفاظ داخل السورة؛ فالسورة تبدأ بـ«الحاقة» وتنتهي بـ«العظيم»، ويظهر وصف ﴿اللَّهُ الْعَظِيمُ﴾ في تفسير مصير صاحب الشمال، ثم يعود في الأمر الأخير: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وهو اتصال لا ينبغي المرور عليه سريعاً؛ لأن السورة تكشف أن جانباً عميقاً من فساد الإنسان يعود إلى خلل في التعظيم: يعظم المال، أو السلطان، أو ذاته، أو القوة، حتى تضطرب في قلبه أعجام الأشياء، ثم تأتي الحاقة لتسقط كل عظمة مستعارة وتبقي القلب أمام العظيم وحده. وكذلك نكرر «التذكرة» عند قصة الطوفان ثم في وصف القرآن، وتصل «الأذن الواعية» بمقام استقبال الوحي، ويتقابل «كتاب» صاحب اليمين و«كتاب» صاحب الشمال مع القرآن الذي أُعطي للإنسان قبل الحساب؛ وكل ذلك يكون في السورة شبكة دلالية تتجاوز القراءة المجزأة.

ومن أصول هذه القراءة أيضاً أن الغيب يُتلقى كما جاء؛ فما أخبر الله به من النفخ في الصور، ودك الأرض والجبال، وانشقاق السماء، والملائكة، وحمل العرش، والكتاب، والجنة، والجحيم، والسلسلة، حق تؤمن به، ولا نخوله إلى رموز نفسية أو استعارات تلغي حقيقته، كما لا تتكلف وصف كيفيات لم يخبرنا الله بها. والتدبر الصحيح لا يحتاج إلى تفريغ الغيب من حقيقته كي يستخرج منه أثراً وجدانياً بل على العكس، إن أثر هذه المشاهد في القلب يتولد من الإيمان بأنها حق واقع، لا من التعامل معها بوصفها صوراً أدبية وحسب.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وكذلك حرص هذا الكتاب على الفصل بين التفسير والتأمل؛ فحين يكون المعنى متعلقاً بدلالة لفظ أو بسياق آية، نلتزم ما تسمح به العربية والسياق وما استقر في التفسير المعتمد، ثم نتقل بعد ذلك إلى التأمل في آثار المعنى، مع إبقاء هذا التأمل في دائرة الاستبصار لا الادعاء بأن كل خاطر هو المراد الوحيد من الآية. القرآن أوسع من أن تُختزل هدايته في قراءة واحدة، والتدبر المتزن لا يقول للنص ما لم يقل، وإنما يصغي إليه طويلاً حتى يكتشف أن المعنى الثابت نفسه يفتح أبواباً متجددة على النفس والحياة.

ولذلك لم نتعامل مع قصص عاد وشمود وفرعون في هذه السورة باعتبارها مجرد استحضار لأمم ماضية، بل بوصفها شهادة تاريخية على قانون العبودية والقوة؛ فالمقصود ليس أن نقف على أطلالهم ونطمئن إلى أننا لسنا منهم، وإنما أن نبحث في أنفسنا عن البذرة التي صنعت نهايتهم: متى تتحول النعمة إلى استعلاء؟ ومتى يتحول السبب إلى معبود خفي؟ ومتى ينسى الإنسان أن القوة مستعارة؟ فالتاريخ القرآني لا يُقرأ لينح الحاضر شعوراً بالتفوق على الماضي، بل لينع الحاضر من إعادة إنتاج خطيئته.

كما أن هذا الكتاب يتوقف طويلاً عند البعد الأخلاقي للآخرة؛ فالقيامة في سورة الحاقة ليست موضوعاً غيبياً منفصلاً عن السلوك اليومي. الكتاب الذي يُعطى هناك يكتب هنا، والخافية التي تظهر هناك تُصنع هنا، والحسرة التي تنفجر يوم الحساب تبدأ من قرار صغير في

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

«الأيام الخالية»، والمال الذي يعترف بعجزه يومئذ كان قادراً في الدنيا أن يتحول إلى صدقة، والسلطان الذي يهلك كان قادراً أن يتحول إلى عدل. ومن هنا فإن الإيمان بالحاقة لا يدفع الإنسان إلى الهروب من الدنيا، بل إلى التعامل معها بمقدارها الصحيح؛ فهي ليست الغاية، لكنها الميدان الوحيد الذي يستطيع فيه أن يصنع ما سيقراً بعد انتهاء زمن العمل.

ومن أبرز المفاتيح التي اعتمدها في قراءة السورة أنها سورة كشف لا سورة تخويف مجرد؛ فهي تكشف حقيقة القوة، وحقيقة المال، وحقيقة السلطان، وحقيقة السريرة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الزمن. ولذلك جاء اسمها من الحق؛ ففي الدنيا يستطيع الإنسان أن يعيش داخل تأويلات كثيرة لنفسه، وأن يجمل دوافعه، وأن يعيد تسمية أخطائه، أما يوم الحاقة فتعود الأشياء إلى أسمائها النهائية، وينتهي سلطان الصورة، ويقف الإنسان أمام ما كان بالفعل لا أمام ما أحب أن يقال عنه. ومن هنا كان إصلاح السريرة واحداً من أعمق المعاني التي تتولد من قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

ولم تكتب هذه الفصول على طريقة المواعظ المنفصلة، بل حاولت أن تبقي القارئ داخل حركة السورة؛ من الصدمة الأولى في قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾، إلى هدوء التسبيح في خاتمها. فثمة قوس شعوري ومعرفي كامل: يبدأ القلب مضطرباً أمام الاسم، ثم يرى مصائر المكذبين، ثم ينهار الكون المألوف أمامه، ثم ينشغل بنفسه وكتابته، ثم يعود إلى مصدر الخبر،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

حتى يبلغ اليقين وينتهي إلى التعظيم. ومن هنا كان تقسيم الكتاب إلى فصول تابعاً لهذا التصاعد، لا تقسيماً شكلياً يفرض على النص من خارجه.

أما الأسلوب، فقد قصد فيه إلى الكثافة لا التكثر؛ أن تكون العبارة مشبعة بالدلالة من غير أن تتحول إلى زخرف يحجب الآية، وأن يعمل التصوير الأدبي في خدمة المعنى لا أن ينافس القرآن على مركز المشهد. فالآية هي الأصل، وكل ما بعدها محاولة إنصات إلى أثرها. وحين نستعمل الصورة والاستعارة فإنما نفعل ذلك لتقريب حركة المعنى إلى الوجدان: كأن نقول إن الحاقة تسقط الأقنعة، أو إن الكتاب مرآة العمر، أو إن الأيام تُرسل أعمالها أمام الإنسان؛ وهي صور تفسيرية أدبية تُعين على التدبر، لا بدائل عن الحقيقة القرآنية ولا تأويلات تنفي ظاهر النص.

وسيجد القارئ كذلك أن السورة تُقرأ هنا بوصفها بناءً للحرية الإيمانية؛ فالذي يعلم أن المال لا يغني، والسلطان يهلك، وأن لا أحد يستطيع أن يحجز عن أحد قضاء الله، يصبح أقدر على التحرر من عبودية البشر والأسباب، لا بمعنى ترك الأسباب أو إهمال الحقوق، بل بمعنى أن يبقى قلبه أعلى من أن يشتري بما يفنى. ومن هنا كان تعظيم الله في خاتمة السورة ليس ذكراً منفصلاً عن مشاهدتها، بل نتيجة طبيعية لها: إذا سقطت العظمت الزائفة، بقي العظيم.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

إن ما نطمح إليه في الصفحات الآتية هو أن يخرج القارئ من سورة الحاقة وقد حدث في داخله تغير في مقياس الأشياء: أن يبدو العمر أقصر وأعلى، وأن يبدو الظلم أخطر، وأن يبدو العمل الخفي أثقل وزناً، وأن يبدو المال أصغر من أن يُعبد، والسلطان أقصر من أن يُخاف الخوف الذي لا يليق إلا بالله، وأن يصبح المسكين أكثر حضوراً في الضمير، وأن يستعيد القرآن صفته الأولى في القلب: تنزيلاً من رب العالمين، لا نصاً مألوفاً أضعفه كثرة المرور عليه.

ولا يدعي هذا الكتاب أنه بلغ قرار السورة؛ فالقرآن لا ينتهي عطاؤه عند قراءة، وكلما عاد إليه القلب بصدق وجد فيه ما لم يجده من قبل. وإنما هي محاولة لأن نقف عند هذه السورة وقوف من يعلم أن الكلمة التي يقرأها اليوم قد يراها غداً حقيقة واقعة، وأن قوله تعالى ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ليس عنواناً لمشهد بعيد، بل خبراً عن مستقبل يقين، وأن أعظم فائدة من معرفة ذلك المستقبل أن نسمح له بأن يصلح حاضرنّا.

فنحن لا نقرأ الحاقة لنعرف فقط ما الذي سيحدث للعالم، بل لنعرف ما الذي ينبغي أن يحدث فينا قبل ذلك.

أن تسقط أوهام القوة قبل أن تسقط القوة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وأن يهلك سلطان الهوى في القلب قبل أن يقول صاحب السلطان: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾.

وأن يؤدي المال رسالته قبل أن يُقال: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾.

وأن تصلح الخافية قبل اليوم الذي لا تخفى فيه خافية.

وأن نقرأ كتاب الله الآن قراءةً واعيةً، حتى نرجو يوماً أن نحمل كتاب أعمالنا بأيماننا.

تلك هي المنهجية التي تسير عليها هذه الرحلة: من ظاهر الآية إلى أثرها، ومن نظم السورة إلى

وحدتها، ومن خبر الآخرة إلى إصلاح الحاضر، ومن الحاقّة إلى تعظيم الله.

وما بين أول السورة وآخرها ليس إلا هذا السؤال الكبير الذي ينبغي أن يبقى مفتوحاً في

القلب ونحن نقرأ:

إذا كانت الحاقّة حقّاً، فما الذي يجب أن يتغير في حياتنا لأننا صدقنا أنها حق؟

الفصل الأول

الحَاقَّةُ

حين تستيقظ الحقيقة من وراء الغيب

﴿الْحَاقَّةُ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾

لا تبدأ سورة الحاقّة بمقدمة تمهّد للمعنى، ولا بحكاية تستدرج القارئ إلى مشهدها رويداً، ولا بخطاب يمنحه فسحةً لتهيئة وجدانه؛ إنها تبدأ بالكلمة التي تكاد تكون في ذاتها واقعة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾. كلمة مفردة، ولكنها تلقى في القلب كأنها حجرٌ في ماءٍ ساكن، فتتسع دوائرها حتى تبلغ أطراف الوجود كله؛ إذ ليس المقصود أن تعرف اسماً جديداً من أسماء القيامة، وإنما أن تشعر منذ الحرف الأول بأن العالم الذي اعتدت ثباته ليس هو الصورة النهائية للأشياء، وأن وراء هذا الستار المألوف يوماً ستسقط فيه كل التسميات المصطنعة، وكل الألقعة الاجتماعية، وكل الموازين التي وضعها البشر ثم صدّقوها طويلاً، ليبقى الحق وحده قائماً لا تحجبه قوة ولا يطمسه سلطان ولا يؤخّره إنكار.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الحاقّة؛ من الحق الذي يثبت فلا يمكن إبطاله، ومن الوقوع الذي لا يجد الإنسان له مهرباً، ومن اللحظة التي تتحقّق فيها الوعود التي ظل الناس في الدنيا بين مصدّق بها ومكذّب، وبين مستعدّها وغافل عنها. وما من اسم يكشف طبيعة القيامة كما يكشفها هذا الاسم؛ فهي ليست حادثة ضخمة فحسب، بل ساعة استرداد الحقيقة من كل ما غطاها في الدنيا. ففي هذه الحياة يستطيع الظالم أن يكتب روايته، ويستطيع صاحب المال أن يشتري حول نفسه صورةً أجمل من حقيقته، ويستطيع المخادع أن يزيّن الخطأ حتى يبدو فضيلة، ويستطيع صاحب المنبر أو السلطة أن يرفع صوته فوق صوت المظلوم، لكن كل هذا ممكن لأن الدنيا دار ستر واختبار وتأجيل، أما الحاقّة فهي اليوم الذي تنتهي فيه قدرة الإنسان على إدارة صورته، ويصبح وجوده كله مكشوفاً أمام ميزان لا يُخدع.

ولذلك لم يقل القرآن في مفتتحها: «يوم القيامة حق»، مع أن المعنى صحيح، بل قال: ﴿الْحَاقَّةُ﴾؛ كأن الاسم نفسه دخل عليك دون واسطة، وكأن القيامة لم تعد خبراً يُروى بل حضوراً يطرق بابك. وبعض المعاني يضعفها الشرح إذا سبق وقعها، ولهذا يترك القرآن هذه الكلمة في أول السورة وحدها؛ لا يسند إليها خبراً، ولا يخفف رهبتها بوصف، حتى يمتد صداها في النفس قبل أن تأتي الآية الثانية فتضاعف هذا الصدى: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إنه سؤال لا يطلب جواباً بقدر ما يكشف عجز الجواب البشري. ماذا تستطيع أن تقول عن يوم لم ترَ له في تجارب الدنيا نظيراً؟ تستطيع أن تصف حريقاً لأنك عرفت النار، وأن تتخيل زلزالاً لأنك رأيت الأرض تضطرب، وأن تفهم الموت لأن الجنائز تمر أمامك، لكن ماذا تفعل أمام يوم تُحمل فيه الأرض والجبال ثم تُدكّان دكة واحدة، وتنشق السماء، ويُعرض البشر، وتُفتح كتب الأعمار، وتتحول السرائر إلى حقائق ظاهرة لا مجال فيها للستر؟ كل تجاربك السابقة جزء من عالم ستُعاد صياغته في ذلك اليوم، فكيف تقيس الكل بأجزاء ستفنى صورها التي عهدتها؟

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؛ ما هذه الحقيقة التي إذا حضرت بطل كل جدل سبقها؟ ما هذا اليوم الذي يساوي بين الملك الذي ظن أن ملكه خالدًا، والفقير الذي لم يكن يملك إلا دعاءً في جوف الليل، ثم يفرّق بينهما بما كان في القلب والعمل؟ ما هذا اليوم الذي تصبح فيه الكلمة التي قلتها منذ أربعين عاماً حاضرة في كتابك، والدمعة التي أخفيتها لله محفوظة، والظلم الذي نسيه صاحبه لم ينسه الميزان، والنية التي لم يرها أحد أوضح عند الله من العمل الذي شاهده الناس؟

ثم ترتفع السورة خطوة أخرى، فلا تكتفي بالسؤال الأول، بل تقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾. وهنا ينكشف حدّ المعرفة الإنسانية؛ فليست القضية أنك لم تفكر بما يكفي، بل أن

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةُ

طبيعة هذا اليوم تتجاوز ما يستطيع الخيال البشري أن يحيط به من تلقاء نفسه. الإنسان ابن المشاهدة، يركب تصوراتهِ من الأشياء التي عرفها، لكن الحاقة ليست امتداداً بسيطاً للعالم حتى يبلغها العقل بمجرد القياس؛ إنها غيب يخبر به خالق الدنيا، ولهذا لا سبيل إلى معرفتها المعرفة التي تهدي إلا من طريق الوحي. كأن الآية تقول: لو تركت إلى نفسك لما أدركت مقدارها، ولا طبيعتها، ولا ما وراء ظاهر الحياة من حساب وجزاء، ولكن رحمة الله هي التي فتحت لك من الغيب نافذة قبل أن تدخل الغيب كله.

ومن هنا تظهر نعمة الوحي في صورة قلباً تتأملها: أن تعرف المصير قبل أن تصل إليه. تخيل إنساناً يعيش عمره كله ثم يفاجأ بعد الموت بعالم لم يسمع عنه، وبحساب لم يُنذَر به، ويكتاب لم يعلم أنه يكتب؛ لكن الله لم يفعل ذلك بعباده، بل أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وسمى اليوم بأسمائه، ووصف مشاهدته، وكشف نهايات الطرق، حتى لا يكون أحد محتاجاً إلى أن يجرب النار ليعرف خطرها، أو يرى القيامة ليقن بها. ومن أعظم الرحمة أن يأتيك الخبر في الزمن الذي ما يزال فيه التغيير ممكناً.

ولهذا فإن قول الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ لا يصنع الخوف وحده، بل يصنع الامتنان أيضاً؛ فما أدراك لولا أن الله أدراك؟ وما عرفت لولا أن الوحي عرفك؟ وكم في حياتنا من حقائق لا تستطيع الحواس الوصول إليها، لكنها حين تدخل القلب من باب خبر الله تصبح

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

أثبت عند المؤمن من كثير مما تراه العين؛ لأن العين قد تخدعها المسافات والظلال، أما خبر الله فلا يدخله الباطل.

والحاقة، في جوهر معناها، ليست فقط انكشاف حقيقة الآخرة، بل انكشاف حقيقة الدنيا أيضاً. فالإنسان لا يعرف الدنيا معرفة كاملة ما لم يرها من نهايتها؛ من ظنها إقامة دائمة فهمها خطأ، ومن ظن المال غاية فهم المال خطأ، ومن ظن الجسد هو الإنسان كله فهم الإنسان خطأ، ومن ظن الموت خاتمة القصة قرأ نصف الجملة ثم أغلق الكتاب. الحاقة تأتي لترد تفسير الدنيا إلى سياقها الكامل، الحياة فصل قصير من كتاب أطول، والعمل بذرة لا تظهر ثمرتها كلها هنا، والزمن ممر لا وطن، والموت انتقال لا عدم، والنجاح الحقيقي لا يمكن قياسه قبل أن يظهر الكتاب الذي حمل الإنسان حصيلته إليه.

ولذلك فإن الإيمان بالحاقة يعيد ترتيب القيم في القلب على نحو عميق؛ ما كان ضمناً يصغر، وما كان صغيراً يكبر. نظرة الناس التي كانت تستحوذ على قلبك تنكمش أمام يوم لا تنفع فيه صورتك عندهم، والكلمة التي تستخف بها تكبر لأنها قد تدخل كتابك، والصدقة التي لا يعرفها أحد تتضخم لأنها لا تضع عند من يعلم السر وأخفى، والظلم الذي قد يبدو عابراً يصبح مخيفاً لأن المظلوم قد ينسى أو يموت لكن الحق لا يموت. ما أكثر الأشياء التي

تبدل أحجامها حين توضع تحت ضوء الحاقة!

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةُ

وحين يقول القرآن الحاقّة فإنه يهدم أيضاً وهماً عميقاً في النفس: وهم أن تأخر الحقيقة يعني غيابها. قد يمر وقت طويل ولا ترى جزء الظالم، وقد يشيخ إنسان في سلطانه، وقد يموت مظلوم دون أن يسترد حقه في الدنيا، فيتسلل إلى القلب سؤال خفي: أين النهاية؟ فتأتي الحاقّة لتقول إن الوقت ليس دليلاً على النسيان، وإن الإمهال ليس إلغاءً للحساب، وإن القصص لم تنتهِ عند الصفحات التي رأيته؛ إنما أنت قرأت من التاريخ مشهده الأرضي، وبقي المشهد الذي لا يكتمل معنى القصة إلا به.

ولهذا فإن عقيدة الحاقّة تحفظ العقل من العبث، وتحفظ القلب من اليأس. لو لم يكن بعد الموت ميزان، فكَم من قصة ستظل ناقصة إلى الأبد؟ كم من قاتل مات مكرّماً، وكم من صالح مات مجهولاً، وكم من دم لم يجد قاضياً منصفاً، وكم من أمانة ضاعت، وكم من قلب انكسر ولا يعلم بكسره أحد؟ الإيمان بالحاقّة يقول إن الوجود لا ينتهي عند حدود قدرتك على رؤية العدالة؛ هناك عدل لا يضيع معه مثقال ذرة، وهناك علم لا يحتاج إلى شاهد ليعرف، وهناك محكمة لا تخطئ ملفاً لأن ملف الإنسان هو الإنسان نفسه وما حفظته عليه الملائكة وأحاط به علم الله.

ومن هنا تتصل الحاقّة بأعمق احتياجات الروح البشرية: حاجتها إلى أن يكون للحياة معنى نهائي. فالإنسان يستطيع أن يتحمل كثيراً من الألم إذا عرف أن الألم ليس عبثاً، وأن يصبر

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

على فقد إذا عرف أن اللقاء ممكن، وأن يثبت على الحق إذا عرف أن الهزيمة الظاهرة ليست الحكم الأخير. أما إن حُصر العالم فيما ترى العين وحدها، فإن أشياء كثيرة ستصبح بلا جواب. الحاقّة هي الجواب الذي يجعل الحاضر جزءاً من عدالة أكبر منه.

لكن السورة لا تريد أن تتحول هذه الحقيقة إلى مجرد عزاء للمظلوم؛ إنها في الوقت نفسه زلزلة للظالم، بل زلزلة لكل إنسان. لأن الحاقّة ليست يوماً سيُعرض فيه الآخرون وحدهم، وإنما نحن من أهل ذلك المشهد. من السهل أن نقرأ الآخرة ونحن نفكر في المجرمين والطغاة، لكن القرآن سيقودنا بعد قليل إلى الجملة التي تقطع كل مسافة آمنة بين القارئ والمشهد: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. أنت لست متفجراً على الحاقّة؛ أنت واحد ممن ستشملهم.

وهنا يتحول السؤال من: متى تقع القيامة؟ إلى سؤال أصدق: على أي حال ستجدي القيامة؟ فالقرآن كثيراً ما ينقل العقل من فضول التوقيت إلى مسؤولية الاستعداد؛ معرفة الموعد لا تنجي، لكن معرفة الطريق تنجي. وليس المقصود أن يعيش المؤمن مرتعداً على نحو يعطل حياته، بل أن يعيش واعياً، يعرف أن اللحظة ثمينة لأنها لا تعود، وأن كل يوم ينقضي يخرج من دائرة الإمكان إلى دائرة الشهادة، وأن الإنسان في كل ليلة يغلق صفحات من كتابه لا يدري هل يفتح مثلها غداً.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وقد يظن بعض الناس أن ذكر القيامة يثقل النفس ويحرمها جمال الحياة، بينما الحقيقة أن الإيمان بالنهاية الصحيحة هو الذي يمنح الأشياء جمالها المتزن. من عرف أن النعمة مؤقتة شكرها، ومن عرف أن الجلسة مع من يحب قد لا تتكرر حفظ قلبه من إفسادها، ومن عرف أن العمر محدود لم يبدده في خصومات تافهة، ومن عرف أن الكلمة مكتوبة لم يجعل لسانه ساحة لفوضى النفس. ذكر الحاقة لا يقتل الحياة؛ بل يقتل الغفلة التي تقتل الحياة قبل موتها.

ولعل من أسرار افتتاح السورة بهذه الكلمة أن الإنسان يحتاج من حين إلى حين إلى صدمة لغوية توقظه من اعتياد الحقائق الكبرى. نحن نسمع «القيامة» كثيراً حتى قد تمر الكلمة على الذهن كما تمر أسماء مألوفة، لكن القرآن يكسر هذا الاعتياد بالتكرار الاستفهامي: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وَمَا الْحَاقَّةُ ﴿﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿﴾. كأن الوحي يمسك بالكلمة التي ظننت أنك تعرفها ويسألك: هل تعرفها حقاً؟ هل دخل معناها إلى طريقة إنفاقك، وخصوماتك، وعلاقاتك، وخلواتك، وخياراتك؟ لأن الحقيقة القرآنية لا تُقاس بما تحفظ عنها، بل بما تغيره فيك.

قد يعرف الإنسان أن الموت حق ويعيش كأنه مستثنى منه، ويعرف أن الرزق بيد الله ثم يهين نفسه خوفاً على رزقه، ويعرف أن الآخرة خير وأبقى ثم يبيع ضميره لأجل شيء يفنى؛

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

هنا تكون المعرفة قد وصلت إلى اللسان ولم تبلغ المركز الذي تتشكل فيه القرارات. سورة الحاقة تريد أن تنقل القيامة من معلومة إلى ميزان وجود.

وفي كلمة الحاقة معنى يحرر الإنسان أيضاً من عبودية الحاضر؛ فليس كل ما انتصر اليوم حقاً، وليس كل ما انهزم باطلاً، وليست الأثرية محكمة نهائية، ولا التاريخ الأرضي يملك الكلمة الأخيرة. كم من فكرة ضجّ لها الناس ثم دفتها الأيام، وكم من كلمة حق بدأت ضعيفة ثم بقيت بعد موت خصومها. فإذا كان هذا يحدث حتى داخل الدنيا، فكيف يوم تُعاد فيه كل الأمور إلى علم الله وعدله؟ الحاقة هي اليوم الذي تنتهي فيه استطلاعات الرأي، وتنطفئ دعايات القوة، ولا يبقى إلا ما كان عند الله حقاً.

ومن هنا يستطيع المؤمن أن يكون هادئاً من غير أن يكون مستسلماً، ثابتاً من غير أن يتحول إلى متكبر؛ لأنه لا يحمل عبء الانتصار النهائي على كتفه. عليه أن يقوم بالحق، ويبذل وسعه، ويصلح ما يستطيع، ثم يعلم أن هناك حاقة ستضع كل شيء في موضعه. هذه العقيدة لا تصنع الهروب من الدنيا، بل تحرر العامل فيها من اليأس إذا تأخر الحصاد.

والعجيب أن السورة تبدأ بالحاقة قبل أن تبدأ بتاريخ المكذبين؛ لأن الخطأ الذي وقع فيه عاد وثمود وفرعون ليس خطأً تاريخياً خاصاً بهم، بل فرع عن نسيان هذه الحقيقة. حين ينسى

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الإنسان يوماً أكبر منه يبدأ في تضخيم نفسه. من ظن أنه لن يقف أمام الله أمكنه أن يقول:
من أشد منا قوة؟ ومن نسي الكتاب سهل عليه أن يكتب على أجساد الناس أحكامه.
الطغيان في عمقه ليس زيادة سلطة فقط؛ إنه اضطراب في تصور الإنسان لمكانه في الكون.
فإذا استقرت الحاقّة في القلب عاد الإنسان إلى حجمه الصحيح: مخلوق مكرم، لكنه مخلوق؛
صاحب إرادة، لكنه ليس مطلقاً؛ يملك أشياء، لكنه لا يملك نفسه ملكاً يخرجها من
سلطان الله؛ يعيش أعواماً، لكنه يسير في كل عام نحو يوم لا يؤخره شيء.

وما أجمل أن يفهم المؤمن هذه الحقيقة قبل أن تفرض عليه فرضاً بالمشاهدة؛ أن يكون من
الذين رأوا الحاقّة بقلوبهم قبل أن تراها أبصارهم، ولذلك أصلحوا أيامهم على ضوء النهاية.
الإيمان بالغيب ليس ضعفاً في الدليل، بل قدرة على الاستجابة لخبر الله قبل أن يتحول الخبر
إلى واقع محسوس لا ينفع معه اختيار جديد.

وسياتي يوم تصبح فيه الآية الأولى التي تقرأها الآن شيئاً تراه: الحاقّة لن تبقى كلمة في
المصحف، و«ما الحاقّة» لن يبقى سؤالاً لغوياً، بل سيصير الإنسان داخل الجواب نفسه.

وهنا يتولد أخطر سؤال في افتتاح السورة: إذا كانت الحقيقة ستأتي حتماً، فلماذا ننتظر
حضورها كي نعاملها على أنها حقيقة؟

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الحكمة أن تجعلها حاضرة الآن.

أن تدخل الحاقة في ميزان المال قبل أن يفنى المال، وفي ميزان السلطة قبل أن يهلك السلطان، وفي علاقتك بالمظلوم قبل أن ينصب الميزان، وفي خلواتك قبل أن يأتي اليوم الذي لا تخفى فيه خافية، وفي كتاب حياتك قبل أن يقال لك: خذ كتابك.

ذلك هو أول أثر للحاقة: أن تعيش اليوم على ضوء اليوم الأخير.

الفصل الثاني

عادٌ وثمود

حين تهزم القوة أمام أمر الله

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٣﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٤﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٥﴾﴾

بعد أن هزّت السورة القلب باسم الحاقة، وبعد أن تركته أمام السؤال الذي يتضاءل أمامه قدرة التصور: ﴿مَا الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، لا تنتقل مباشرة إلى مشاهد القيامة، بل تفتح سجل التاريخ؛ لأن من رحمة القرآن بالإنسان أن يريه في الماضي صورة مصغرة من القانون الذي سيكتمل في الآخرة. فالقيامة قد تبدو للغافل بعيدة، أما خرائب الأمم فكانت يوماً مدناً مأهولة، والذين صاروا قصصاً كانوا أحياء يتحركون ويخططون ويضحكون ويظنون أن غداً سيأتي كما جاء الأُمس. ولهذا فإن التاريخ في القرآن ليس أرشيفاً للمعرفة، وإنما هو

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

مختبر اليقين، فيه ترى كيف تنتهي القوة حين تنفصل عن الحق، وكيف يتغير معنى الأشياء كلها حين يدخل أمر الله إلى المشهد.

﴿كَذَّبَتْ ثُمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

كان السياق يتحدث عن الحاققة، ثم سماها هنا القارعة؛ وكأن الاسم الثاني يفتح نافذة أخرى على اليوم نفسه. الحاققة من جهة ثبوتها وتحقيقها للحق، والقارعة من جهة شدتها التي تفرع القلوب والأسماع وتطرق العالم طرقاً لا يتركه على حاله. فالقيامة ليست حقيقة ساكنة، بل حقيقة تأتي بعنف يهدم استقرار الوهم؛ وما أخطر أن يعيش الإنسان مطمئناً إلى شيء بينما الحقيقة تقترب منه كقارعة لا يستطيع إغلاق الباب في وجهها.

وقد جمع القرآن ثمود وعاداً في أصل المرض: التكذيب. اختلفت ديارهم، وأزمانهم، وأشكال عمرانهم، لكن الجذر واحد؛ ظنّ الإنسان أن ما لم يقع بعد يمكن أن لا يقع أبداً، وأن تأخر الوعيد يمنحه حقاً في السخرية منه، وأن قوته الحاضرة تصلح برهاناً على سلامة مستقبله. وهذه آفة تتجدد بأسماء مختلفة؛ فالإنسان لا يقول دائماً بلسانه: لا قيامة، لكنه قد يعيش كما لو لم يكن هناك حساب، يزن قراراته بميزان اللحظة وحدها، ويخشى خسارة المال أكثر من خسارة الحق، ويحسب انتصار اليوم دليلاً على سلامة الطريق كله.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إن التّكذيب بالقارة ليس مجرد رأي في قضية غيبية؛ إنه خلل يعيد ترتيب الحياة كلها. من لا يرى وراء الدنيا حساباً، لا يرى في الظلم إلا مخاطرة قانونية، ولا في الأمانة إلا خياراً أخلاقياً، ولا في الكلمة إلا صوتاً ينتهي، ولا في السريرة إلا منطقةً لن يمتحّمها أحد. أما من آمن بالحاقة، فإن أصغر الأعمال تكتسب عمقاً آخر؛ لأنه يعرف أن كل شيء ينتج إلى ساعة كشف.

ثم تبدأ السورة بتفصيل المصير:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾.

كلمة واحدة للعذاب: الطاغية. لفظ يحمل معنى التجاوز والفيض عن الحد، كأن العذاب لم يكن مجرد قوة تصيبهم، بل قوة طغت عليهم حتى لم يبق في قدرتهم موضع للمقاومة. والذي يلفت النظر أن ثمود اشتهرت بنحت الجبال وبناء البيوت في الصخر؛ قومٌ نقلوا العمران من السهل المش إلى الجبل الصلب، وكأنهم كانوا يبحثون عن حصانة ضد الزمن نفسه، لكن ما الذي تفعله صلابة الجدار إذا جاء الأمر من صاحب الجبل؟

هنا يضرب القرآن أصل وهم حضاري عميق: أن القدرة على التحكم في المادة تعني القدرة على التحكم في المصير. الإنسان يبني، ويكتشف، ويطور، وكل ذلك من نعم الله ومن

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

أسباب عمارة الأرض، لكن الخلل يبدأ حين تتحول الوسيلة في القلب إلى مصدر استقلال؛ حين ينسى المخلوق أن كل قوته تعمل داخل شبكة من السنن التي أقامها الله، وأن الذي أعطى المادة خصائصها قادر على أن يغيّر أثرها، أو يسلب الإنسان قدرته على الانتفاع بها، أو يرسل عليه من جنوده ما يعجز كل ما بناه عن دفعه.

ثمود لم تهلك لأن الجبال كانت ضعيفة، بل لأن الجبال لا تملك نفسها. وهذه هي النقطة التي يريد الوحي أن يرّد القلب إليها كل مرة: لا تتعلق بالصفة حتى تنسى واهبها. الصخر صلب بإذن الله، والنار محرقة بإذن الله، والماء سبب حياة بإذن الله، والقلب ينبض بإذن الله. وإذا نزع الله الإذن لم يبق للإنسان من خصائص الأشياء إلا أسماء كانت تعمل بالأمس ثم توقفت اليوم.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾؛ ما أقصر العبارة قياساً إلى حضارة كاملة. وهذا الاختصار في ذاته درس؛ فالإنسان يطيل الحديث عن منجزاته، ويحصى أبنيته، ويؤرخ ملوكه، ثم يأتي القرآن إلى آخر الصفحة فيختصر كل الضجيج في كلمة: أهلكوا. ما أقسى الفرق بين طول ما يبينه الإنسان وقصر الجملة التي قد تصف نهايته.

ثم تتحول السورة إلى عاد:

إذا كانت ثمود قد واجهت العذاب بما لا ينفع من صلابة الصخر، فإن عادًا واجهت شيئًا أكثر إدهاشًا: الريح. والريح في الحس شيء لا يُمسك، لا تُرى بذاتها، ولا تحمل في ظاهرها صورة الجيش، لكن الله جعلها جندًا لا تستطيع أجساد عاد أن تثبت أمامه. ويا للمفارقة: قوم كانوا يفاخرون بالبطش والقوة البدنية، يهلكون بعنصر يمر كل يوم على الوجوه فلا يلتفت إليه أحد.

وهنا درس من أبلغ دروس السورة: ليست عظمة الجند في حجمه، بل فيمن سخره. ما أكثر ما يفتن الإنسان بصورة القوة فيحسب أن الضخم وحده يهدد، وأن الصغير لا يملك تغيير شيء، ثم يكشف الله له في التاريخ وفي نفسه أن أضعف الأشياء في ظنه يمكن أن تكون سببًا في انهيار أعظم ما بناه؛ جرثومة لا تُرى، أو خلل صغير في جسد، أو كلمة تهدم ثقة، أو قرار يفتح سلسلة لا يستطيع بعدها العودة. إن الإنسان لا يعيش في كون يملك مفاتيحه كاملة؛ يعيش داخل ملك الله، وما شاء الله بلغ.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ ريح شديدة في صوتها وبردها وقوتها، عنت في اندفاعها، فجاوزت

المألوف الذي يعرفه الناس من حركة الهواء. كانت الريح قبل ذلك نعمةً تحمل السحاب

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وتلطف الجو، فلها جاء الأمر تغير وجه النعمة. وهذا يعيد إلى القلب حقيقة لا غنى له عنها:
لا شيء في الوجود خيرٌ لنا بذاته مستقلاً عن مشيئة الله، ولا شيء يملك خصائصه بعيداً عن
أمره. النعمة نعمة ما دام الله يجريها في طريق الرحمة.

ثم يقول تعالى:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

لفظة ﴿سَخَّرَهَا﴾ هي مفتاح المشهد. لم تكن الريح قوة انفلتت من نظام الكون مصادفة، ولم
يكن الذي جرى فوضى طبيعية؛ كانت مسخرة. وهذا اللفظ يردّ كل شيء إلى مركزه:
الكون ليس مستقلاً عن خالقه، والقوى التي تبدلنا سماء تتحرك داخل أمره. ما نسميه
«قوانين» لا يعني خروج العالم عن الإرادة الإلهية؛ بل هي سنن أقامها الله، يجريها كيف
شاء، ويجعل منها في وقت نعمة وفي وقت آخر عقوبة.

ثم يمتد العذاب: سبع ليالٍ وثمانية أيام. لا تنتهي العاصفة في لحظة حتى يظن القوم أنها
حادثة عابرة، بل يتصل عليهم البلاء حتى يصبح الزمن نفسه جزءاً من العذاب. كل ساعة
تمر لا تقرّبهم من الأمان، بل تؤكد أن القوة التي اعتادوا الاتكال عليها فقدت معناها.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وصف الأيام بأنها ﴿حُسُومًا﴾ يحمل معنى التتابع والاستئصال؛ أيام تقتلع ما بقي من وهم، وتقطع أثر القوة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الصورة التي كانت تخيف الآخرين إلى أجساد مطروحة لا حول لها. وفي هذا التتابع معنى تربوي عميق: بعض الأوهام لا يسقط من النفس بضربة واحدة، بل يحتاج إلى أن يظل الواقع ينقضه مراراً حتى يعترف القلب بحقيقته. عاد بنت ثقافتها على القوة؛ ولذلك جاء مشهد النهاية طويلاً بما يكفي لأن تنكسر هذه العقيدة أمام أعين أصحابها.

ثم يرسم القرآن الصورة:

﴿قَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وهنا تبلغ المفارقة ذروة الإيلام. أجساد كانت يوماً رمزاً للبطش، صارت صرعى؛ أي مطروحة لا تملك أن تقيم نفسها. ثم يشبّها القرآن بأعجاز نخل خاوية، بأصول نخل ساقطة فارغة. والنخل في الوجدان العربي رمز للارتفاع والامتداد والثبات، لكن ما إن يخلو الجذع ويسقط حتى يصبح ما كان عنواناً للحياة صورةً للخراب.

كأن السورة تقول: إن الشيء الذي افتخرت به قد يتحول في النهاية إلى شاهد عليك. أجسادهم التي كانوا يقولون بها: من أشد منا قوة، أصبحت ذاتها هي التي تجسد عجزهم. لم

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

يحتج القرآن إلى أن يأتي لهم برمز آخر، بل جعل موضوع نخرهم مادة الصورة التي تروي انبهارهم.

وهذا قانون يتجاوز عاداً؛ كل شيء يتكبر به الإنسان يمكن أن ينقلب عليه إذا فقد صلته بالحق. المال الذي يستعلي به قد يصير مصدر قلق لا ينتهي، والمنصب الذي يطلب به الهيبة قد يصير باب سقوطه، والذكاء الذي يزدري به الآخرين قد يصير حجاباً يمنعه من رؤية أبسط الحقائق، والجسد الذي يفتن به قد يعلّبه في مرض واحد أنه أضعف مما كان يتصور. ليست المشكلة في النعمة، بل في المعنى الذي أعطاه الإنسان في قلبه.

ثم تأتي الآية التي تكاد تكون أهدأ آيات المقطع لفظاً وأشدّها هدماً للكبرياء:

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.

بعد العاصفة لا يزيد القرآن في وصف الخراب، بل يسأل: هل بقي شيء؟ وهذا السؤال وحده يكفي. كأن كل تاريخ عاد، وكل حضورهم، وكل صرخاتهم، وكل قصورهم، وكل سلطتهم، انتهت إلى بحث في الفراغ: هل ترى لهم من باقية؟

كم من إنسان يعيش كأن مجرد حضوره أمر لا يمكن للعالم تجاوزه؛ يريد أن يُذكر في كل مجلس، وأن تمضي الأمور بإشارته، وأن يظل أثره حاضراً في كل مكان، ثم يمضي الزمن

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

فيتعلم من بقي بعده أن الحياة استمرت. وهذا من أشد ما تكشفه سورة الحاقة عن وهم الذات: العالم ليس واقعاً على وجود أحد، والكون لا ينهار لموت فرد، والذي يضمن لك القيمة ليس أن يظل اسمك في أفواه الناس، بل أن يبقى عملك عند الله.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾؛ ليست فقط نهاية عاد، بل سؤال يُلقى على كل طغيان: أين بقية الممالك التي تصرفت كأن التاريخ خُلق لأجلها؟ أين الذين ملأوا أعين الناس خوفاً؟ أين الأصوات التي لم يكن أحد يجرو أن يعارضها؟ أين الذين جمعوا في يدهم المال والسلاح والسلطان ثم ناموا مطمئنين إلى أن اجتماع الأسباب يعني استحالة السقوط؟

ذهبوا، وبقي السؤال.

والقرآن حين يستدعي هذه النهاية لا يريد من المؤمن شماتةً بالتاريخ، بل يريد يقظة لنفسه؛ فكل واحد يحمل صورة مصغرة من وهم عاد إذا ظن أن ما لديه يمنحه مناعة، ويحمل صورة من ثمود إذا وثق بالجدار ونسي رب الجدار. وقد لا يكون طغيان الإنسان دولةً وجيشاً؛ قد يكون بيتاً صغيراً يستبد فيه، أو كلمةً يرفض الاعتذار عنها، أو حقاً لمسكين يأكله لأنه يثق أن الضعيف لا يستطيع الوصول إليه. الطغيان يبدأ في القلب قبل أن يظهر في القصور.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

إن ثمود وعاداً لا تدخلان السورة لتخبرانا بأن الله قادر على إهلاك الأقوياء فحسب؛ فهذه حقيقة معلومة، بل لتعيد تعريف القوة نفسها. القوة التي لا تمنع عنك قدر الله ليست قوة مطلقة، والعمران الذي لا يمنع النهاية ليس خلوداً، والجسد الذي لا يمنع الشيخوخة ليس ضمناً. كل ما في الدنيا قوة نسبية مستعارة، تنفع داخل الحد الذي أقامه الله لها، ثم تقف عاجزة أمام الحد الأخير.

ومن هنا نتولد في قلب المؤمن علاقة أكثر توازناً بالأسباب؛ لا يهملها، لأنه مأمور بالسعي، ولا يعبدها، لأنه يعلم أنها لا تملك نفسها. يبني البيت ويعلم أن الحفظ من الله، ويطلب الرزق ويعلم أن الفتح من الله، ويتداوى ويعلم أن الشفاء من الله، ويتخذ أسباب القوة ويعلم أن النصر من الله. هذا ليس إضعافاً لإرادة الإنسان، بل تحرير لها من الخوف المرضي من الأسباب والاعتماد المرضي عليها.

وما أجمل أن تضع السورة هذه القصص بعد افتتاح الحاقة؛ فالذي يرى كيف انتهت عاد وثمود يفهم أن القيامة ليست فكرة مستبعدة في كون لا يتغير، بل هي الخاتمة الكبرى لقانون رأينا نماذجه مراراً: ما يظنه الإنسان ثابتاً قد ينقلب في لحظة، وما يظنه حصناً قد يصبح عاجزاً، وما يظنه قدراً دائماً قد ينتهي بكلمة من الله.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ولهذا فالتاريخ عند المؤمن ليس فقط ذاكرة، بل تربية. حين تمر على آثار أمة سابقة لا تسأل فقط: كيف بنوا؟ بل: ماذا ظنوا؟ وأين أخطأ تصورهم لله ولأنفسهم؟ وما الذي ينبغي أن يسقط في داخلي قبل أن تسقط الأشياء من حولي؟

النجاة الحقيقية ليست أن تملك جبلاً لا يهتز؛ بل أن لا تجعل قلبك متعلقاً بجبل.

وليس أن تملك قوة لا تهزم؛ فليس في الدنيا قوة كذلك.

النجاة أن تعرف من له القوة كلها.

وحين تصل السورة إلى ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ تكون قد انتزعت من القلب أول وثن كبير في طريق الحاقة: وثن الاعتماد على القوة.

وسياتي بعدها التاريخ مرة أخرى، بأسماء أخرى وصور أخرى، ليقول إن المرض واحد وإن تعددت الوجوه؛ فرعون، ومن قبله، والمؤتفكات، ثم الطوفان، حتى يفهم الإنسان أن القضية ليست حادثة معزولة، بل قانوناً يجري في البشر: كلما استكبر المخلوق عن مقام العبودية، حمل في صعوته بذرة سقوطه.

الفصل الثالث

من فرعون إلى الطوفان

حين يتحول النجاة إلى ذاكرة إيمان

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۖ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ۖ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُومَ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعْيِبًا أُذُنًا وَعَايَةً ۖ﴾

لا تزال السورة تمضي في هدم وهم الإنسان عن القوة، لكنها لا تكرر المشهد نفسه؛ فما كان في عاد وثمود قوة جسدٍ وعمران، يتحول هنا إلى سلطةٍ وسياسةٍ وتمردٍ أخلاقي، ثم ينتهي المشهد كله عند سفينة صغيرة تحمل في جوفها سرَّ البقاء. وكأن القرآن يريد أن يقول إن التاريخ، مهما تنوعت ملامحه، يدور حول سؤال واحد: من الذي يملك النهاية حقاً؟ الإنسان الذي يرتفع لحظةً فوق الناس، أم الله الذي يملك الإنسان والزمان والماء والأرض والمصير؟

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۖ﴾

تأتي صورة فرعون هنا مجردة من تفاصيل قصته الطويلة، لأن السورة لا تريد أن تعيد سيرة الرجل، بل تستحضره بوصفه نموذجاً كاملاً لغرور السلطة؛ إنساناً بلغ من تضخم الذات أن

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لم يعد يرى في الناس إلا تابعين، ولا في الحقيقة إلا ما يوافق موقعه، ولا في الوحي إلا تهديداً لنظام بناه حول نفسه. فرعون في القرآن ليس اسماً تاريخياً فقط، بل صورة مكثفة للحظة التي ينسى فيها المخلوق أنه مخلوق، فيبدأ بالتعامل مع العالم كما لو أن الأشياء خلقت لتدور حول إرادته.

ولذلك لا يقول السياق: وجاء فرعون بجيشه أو بملكه، بل ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾؛ لأن الذي يزن التاريخ عند الله ليس حجم البناء الذي تركه الإنسان، بل حقيقة الطريق الذي جاء به إلى نهايته. قد تمتلئ صفحات الأرض بأسماء الملوك، ثم يختصرهم الوحي في كلمة أخلاقية واحدة؛ لأن ما يخلّد الإنسان عند الله ليس ما صنعه حول نفسه من هيبة، بل ما كان بينه وبين الحق.

الخاطئة هنا ليست زلّةً عابرة ولا خطأً وقع ثم ندم عليه صاحبه، بل طريقاً امتلأ بالانحراف والإصرار، حتى صار الخطأ جزءاً من هوية الموقف كله. والفرق كبير بين إنسان يخطئ وهو يعرف ضعفه فيعود، وإنسان يبني لنفسه منظومة كاملة تبرر الخطأ ثم يدافع عنها حتى النهاية. الأول يعترف بأنه عبد ضعيف، والثاني يحاول أن يجعل هواه معياراً للحقيقة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وتذكر الآية ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾، وهي القرى المنقلبة التي جاءها العذاب، فيجتمع في هذا السطر طغيان السلطة وانقلاب الأخلاق؛ وكأن القرآن يوسّع لنا معنى الفساد: ليس الفساد محصوراً في حاكم جائر، ولا في نظام سياسي منحرف، بل كل انقلاب في ميزان الفطرة والحق يدخل في دائرة الخاطئة حين يصبح التمرد اختياراً مقيماً لا حادثة عابرة.

ثم يكشف النص أصل الانحراف كله:

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

يا لثقل هذه الإضافة: رسول ربهم.

لم يعصوا رسول عدو، ولم يرفضوا خطاباً من قوة غريبة تنازعهم الأرض، بل عصوا من جاءهم من عند ربهم؛ من عند الذي خلقهم قبل أن يعرفوا أنفسهم، وأمدهم بالقوة التي استخدموها في العصيان، وأبقاهم في اللحظة نفسها التي يرفعون فيها أصواتهم بالرفض. وهنا تبلغ المفارقة الأخلاقية ذروتها: أن يستخدم المخلوق نعمة الرب في التمرد على رسالة الرب.

فاللسان الذي يقول: لا، هو لسان خلقه الله.

والقلب الذي يعاند، قلب نبض بإذنه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

والأرض التي يقف عليها المعاند، أرضه.

والزمن الذي يمهله، زمنه.

ولذلك فالعصيان ليس مجرد مخالفة أمر، بل سوء فهم عميق للعلاقة بين العبد وربّه؛ إذ يتصرف الإنسان كأن حياته ملك خاص مستقل، مع أن وجوده كله قائم على الإمداد في كل لحظة.

ومع ذلك قال: ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لا «رسول الله» فقط، ليبقي باب الرحمة ظاهراً حتى في سياق الهلاك؛ فقد كان الذي أرسل إليهم ربهم، أي القائم على تربيتهم وإنعامه عليهم، ولم يكن إرسال الرسول انتقاماً منهم، بل محاولة إنقاذ قبل الأخذ. ما أشد خسارة من تحولت الرحمة المرسلة إليه إلى حجة عليه لأنه أبى أن يسمعها.

ثم تأتي النهاية:

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

لفظ الأخذ هنا يرسم علاقة القوة في صورتها النهائية. كان فرعون يأخذ الناس، ويبطش، ويأمر، ويحبس، ويقتل، ثم صار هو نفسه مأخوذاً. وهذه من أسرار التعبير القرآني؛ إذ

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

يقلب الفعل الذي مارسه الطاغية على غيره إلى حقيقة تقع عليه، فيعرف القارئ أن اليد التي امتدت فوق البشر ليست هي اليد الأخيرة في المشهد.

﴿أُخَذَتْ رَآيَةً﴾؛ زائدة في شدتها، بالغة في أثرها، حتى لا يبقى من وهم القدرة شيء. وحين يأخذ الله فلا تستطيع الأرض أن تفتح منفذاً للهروب، ولا الجبال أن تمنح حصانة، ولا المال أن يشتري مهلة، ولا الجند أن يصنعوا منطقة خارجة عن سلطانه. الكون كله لا يملك خارجاً يفر إليه الإنسان من ربه.

وفي كلمة أخذهم معنى يهز القلب؛ فالإنسان في الدنيا كثير الحركة، يتنقل ويخطط ويتصور نفسه هو الفاعل الأول، ثم تأتي لحظة يصبح فيها هو المفعول به في جملة القدر. من عاش طويلاً يقول للآخرين: افعلوا، اذهبوا، امنعوا، خذوا، قد يسمع يوماً أمراً لا يملك معه شيئاً إلا أن يكون مأخوذاً.

لكن السورة لا تقف عند قصص الهلاك، بل تنقلنا فجأة إلى مشهد مختلف؛ ليس فيه طاغية يغرق وحده، بل عالم يغمره الماء، وسفينة تحمل سرّ البقاء:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرًّا فِي الْجَارِيَةِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

ما أعجب الانتقال من طغيان الإنسان إلى طغيان الماء. كأن السورة تضع صورتين متقابلتين:

طغيانٌ بشري يتجاوز حد العبودية، ثم ماءٌ يجاوز حدّ المألوف بأمر الله ليكون أداة في تنفيذ

الحكم. الإنسان يطغى بإرادته معصية، والماء يطغى بتسخير ربه تنفيذاً لأمره؛ فيظهر الفارق

بين مخلوق تمرد على حدّه، ومخلوق لم يخرج عن حدّ العبودية ولو غطى الأرض كلها.

الماء الذي يحمل الحياة يصبح هنا سبباً للهلاك. وهذه الحقيقة وحدها كافية لهدم ثقة القلب

بالصور المجردة؛ فما نراه نعمة ليس نعمة بذاته استقلالاً، وإنما هو نعمة حين يجري في مسار

الرحمة الذي شاءه الله. الماء يروي، ويغسل، ويحيي الأرض، ثم يأمره الله فيطغى. والنار

تتحرق، ثم يأمرها الله فتكون برداً وسلاماً. والبحر يغرق، ثم يأمره الله فينشق طريقاً.

الأشياء في القرآن ليست آلهة صغيرة لها طبيعة مستقلة، بل جنود في ملك الله، تعمل ضمن

السنن التي أقامها، ولا تخرج عن سلطانه.

﴿لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾؛ صورة كونية تختصر هشاشة الإقامة البشرية على الأرض. نحن نبنى المدن

قريباً من البحار، ونشق الأنهار، ونقيم السدود، ونشعر أن الماء صار تحت إدارتنا، لكن

مشهد الطوفان يقول إن ما نستخدمه اليوم يمكن أن يتجاوز كل ما نعرفه إذا شاء الله. وليس

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

المراد أن يعيش الإنسان خائفاً من الطبيعة، بل أن لا ينسى أن الطبيعة نفسها ليست مستقلة عن ربها.

ثم تأتي أجمل كلمة في قلب هذا المشهد:

﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾.

لم يقل: حملنا نوحاً ومن معه فحسب، بل قال للمخاطبين بعد أجيال طويلة: حملناكم. وكأن الله يربط الإنسان بذاكرة نجاته القديمة؛ أنتم موجودون لأن سفينةً حملت آباءكم، ولأن رحمةً سبقت ميلادكم، ولأن سلسلة البشر لم تنقطع في تلك اللحظة.

ما أعمق هذا المعنى حين يتسع في القلب؛ نحن لا نعيش فقط على النعم التي نراها في يومنا، بل نحمل في وجودنا آثار نعم سابقة لم نشهدها. كم من رحمة حدثت قبل ولادتك لتكون أنت هنا؟ كم من نجاة وقعت لجذ بعيد، وكم من طريق تغير، وكم من مرض اندفع، وكم من موت تأخر، حتى وصلت سلسلة الحياة إليك؟

الإنسان يرى حياته من يوم ميلاده، لكن رحمة الله به أقدم من ذاكرته.

﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾؛ لم يقل «في السفينة» فحسب، بل سماها بالجارية، أي التي تجري.

حركة السفينة وسط الطوفان صورة بالغة الدلالة؛ فليس الأمان دائماً في شيء ثابت، بل قد يكون الأمان في شيء صغير يجري فوق عالم هائج، لأن الله هو الذي يحمله.

وكان يمكن للسفينة في الحساب المادي المجرد أن تبدو أضعف من الطوفان بما لا يقاس؛ كتلة محدودة من الخشب أمام ماء يغطي الآفاق، لكن معنى النجاة لا يحدده الحجم. هناك أشياء تبدو صغيرة جداً إذا قيسَتْ بما حولها، لكنها تكون أكبر من الخطر كله لأنها داخلية في حفظ الله.

وفي حياة المؤمن تتكرر هذه الصورة بصيغ أخرى؛ قد يكون حوله اضطراب واسع، ولا يملك إلا يقيناً صغيراً في ظاهر الناس، أو دعاء في جوف الليل، أو طاعة لا يلتفت إليها أحد، لكنها سفينته. النجاة لا تحتاج دائماً إلى أن تكون أقوى من العاصفة؛ تحتاج إلى أن تكون في الموضع الذي أراد الله أن يجعل فيه الحفظ.

ثم تكشف الآية التالية الغاية:

﴿لَنَجْعَلَ لَكَ نَذْرَةً﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

الحدث الكبير لا يريد الله له أن يبقى في الماضي؛ يريد أن يتحول إلى تذكرة. وهنا نعرف وظيفة القصص القرآني: ليس أن يملأ ذاكرة الإنسان بالمعلومات، بل أن يوقظ فيه معنى. السفينة لم تبق خشباً في التاريخ، بل صارت إشارة متجددة إلى أن النجاة من الله، وأن الكثرة لا تصنع الحق، وأن الضعف الظاهر لا يمنع الحفظ، وأن الطوفان مهما علا لا يبتلع من حملة الله.

التذكرة هي تحويل الماضي إلى بصرية للحاضر.

ولهذا فإن الإنسان قد يعرف القصة ولا يتذكر بها؛ يحفظ أسماء الأقسام، ويعرف ترتيب الأحداث، لكنه إذا وقع في خوفه الخاص نسي كل قوانين النجاة التي قرأها. والفارق بين المعرفة والتذكرة أن المعرفة تعطيك الخبر، أما التذكرة فتعيد الخبر إلى حياتك.

أن تقرأ قصة نوح ثم تفزع من كثرة الباطل كأن الحق لا يستطيع أن يعيش قليلاً، فهذا سماع بلا تذكرة.

وأن تعرف أن الطوفان غطى الأرض ثم حمل الله السفينة، ثم تئأس من ضيق مرحلتك لأن أسباب النجاة قليلة في نظرك، فهذا حفظ للحدث دون وعي بقانونه.

والقرآن يريد الثاني لا الأول؛ يريد أن تتحول القصص إلى طريقة ترى بها الواقع.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ثم تأتي واحدة من أبدع العبارات في وصف الاستقبال البشري للوحي:

﴿وَتَعْيَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾.

لم يقل: وتسمعها أذن، لأن كل أحد قد يسمع. السماع حركة حسية، أما الوعي فهو أن يبقى المعنى في الداخل، وأن يجد له مكاناً في شبكة الفهم، وأن يعيد تشكيل الرؤية. قد يدخل الصوت من الأذن ويخرج من الذاكرة سريعاً، وقد تدخل كلمة واحدة فتسكن الإنسان عشرين سنة وتغير اختياراته كلها.

الأذن الواعية ليست عضواً مختلفاً في الحلقة، بل صورة لقلب لا يسمح للآية أن تمرّ به بلا أثر.

والتعبير بالأذن جميل؛ لأن القرآن يبدأ رحلته إلى القلب من باب السماع. الكلمة تأتيك أولاً صوتاً، ثم إما أن تستقبلها بوعي فتتحول إلى يقين، وإما أن تمر عليها كما تمر الريح على جدار مغلق.

وما أكثر الآيات التي سمعناها حتى ضعفت دهشتنا منها لا لأنها ضعفت، بل لأننا اعتدناها. الاعتياد قد يكون حجاباً رقيقاً لكنه شديد؛ تسمع الآية للمرة المئة، فيسبق إلى نفسك أنك

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

تعرفها، فيغلق هذا الشعور باب اكتشافها من جديد. الأذن الواعية تسمع القديم كما لو أنه يخاطب جرحاً جديداً، وتسمع القصة البعيدة كما لو أنها مرآة للحاضر.

ولعل ذكر الأذن الواعية هنا بعد قصص الهلاك والنجاة يعني أن أخطر ما يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن يغيب عنه الخبر، بل أن يصل إليه ولا يغيره. فقوم نوح سمعوا طويلاً، وفرعون سمع، وعاد وثمود سمعوا؛ لم تكن الأزمة في انعدام الرسالة، بل في عجز القلب عن أن يحول السماع إلى استجابة.

وهذا ما يجعل الوعي نعمة أخلاقية، لا قدرة عقلية فقط. فقد يكون الإنسان حاد الذكاء، سريع الفهم، واسع المعرفة، لكنه غير واعي بالمعنى القرآني لأن كبرياءه يرفض أن يستجيب. الوعي ليس مجرد أن تفهم ماذا تعني الجملة، بل أن تسمح لها أن تكون لها سلطة على حياتك.

﴿وَتَعْبَأُ أُذُنُ وَاَعِيَّةٌ﴾؛ أي أذن تحفظ الحقيقة لا في الذاكرة وحدها، بل في الموقف. تسمع أن الطغيان ينتهي، فلا تساعد طاغية. تسمع أن النجاة من الله، فلا تبيع يقينك للخوف. تسمع أن الماء طغى ثم حمل الله السفينة، فلا تحسب كثرة الخطر دليلاً على استحالة الفرج. تسمع أن الرسالة رحمة قبل العقوبة، فلا تؤجل الاستجابة حتى تتحول الندارة إلى واقع.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وهنا يظهر اتصال هذا الفصل ببداية السورة؛ فقد سألت الحاققة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾،

ثم جاءت القصص لتدرب الأذن على الوعي قبل أن تفتح أمامها مشاهد القيامة الكبرى.

وكان القرآن يقول: إن لم نتعلم من التاريخ الصغير، فكيف سستعد لليوم الأكبر؟

التاريخ كله تذكير مبكر بالحاققة.

كل قبر حاقة صغيرة في حياة فرد.

كل سقوط قوة درس عن هشاشة العالم.

كل نجاة مستحيلة في ظاهر الأسباب إشارة إلى أن الميزان ليس بيد الأسباب وحدها.

كل نهاية كانت مستبعدة ثم وقعت تذكير بأن المستقبل لا يأخذ إذناً من توقعات الإنسان.

ولذلك لا يخرج القارئ من هذه الآيات وهو يحمل صورة فرعون أو الطوفان فحسب، بل

يحمل سؤالاً عن نفسه: ماذا فعلت أنا بما سمعت؟

هل صارت قصص القرآن جزءاً من رؤيتي، أم بقيت محفوظات دينية؟

هل إذا هاج طوفان الخوف في حياتي أتذكر السفينة، أم أنسى كل شيء وأعبد جم

الموجة؟

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

هل إذا رأيت متجبراً أظن أن نفوذه حقيقة نهائية، أم أرى وراءه كلمة: فأخذهم؟

هل إذا كنت في موضع قوة أتذكر أن فرعون كان أقوى مني ظاهراً، وأن القوة التي لا يضبطها الإيمان تتحول على صاحبها؟

وهكذا تتحول ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ إلى معيار للقراءة القرآنية كلها: ليس السؤال كم آية مرّت بك، بل كم آية بقيت فيك.

فبعض الناس يقرأون القرآن، وبعضهم يسمحون للقرآن أن يقرأهم.

والأذن الواعية هي التي تسمع في قصة الطوفان صوتاً يتجاوز الزمن: لا تغتر إذا علا شأنك، ولا تيأس إذا علا الماء؛ فالمتكبر قد يؤخذ، والمستضعف قد يُحمل، والمصير كله بيد الله.

الفصل الرابع

النفخة الواحدة

حين يتداعى العالم الذي ظنناه ثابتاً

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۖ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

بعد أن أخذتنا السورة إلى المقابر القديمة للحضارات، وأرستنا كيف صار أصحاب القوة أجساداً مطروحة، وكيف غرق الطغيان وحملت الرحمة سفينةً صغيرةً فوق الماء، تنتقل فجأةً من تاريخ النهاية إلى نهاية التاريخ؛ من أمم سقطت وبقي العالم بعدها قائماً، إلى اللحظة التي يسقط فيها شكل العالم نفسه، فلا تعود المسألة قوماً هلكوا وأرضاً بقيت، ولا ملكاً زال ومملكةً ورثها غيره، بل يصبح المسرح كله موضوعاً للتغيير، وتنتهي الصورة المألوفة التي عاش الإنسان داخلها حتى خُيِّلَ إليه أنها الصورة الطبيعية الأبدية للوجود.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

هنا تبدأ الواقعة من أمر يبدو في العبارة شديد الاختصار أمام ضخامة أثره: نفخة واحدة. كلمة واحدة تهدم في النفس وهماً عميقاً؛ أن ضخامة العالم تستلزم ضخامة في المشقة على من يغيره. الإنسان يقيس كل شيء على نفسه؛ كلما كبر العمل احتاج عنده إلى وقت أطول وقوة أكبر وأدوات أكثر، فيظن من حيث لا يشعر أن الكون لقوة جمه عصي على التحول، لكن القرآن يردّه إلى حقيقة القدرة الإلهية: الذي خلق هذا الامتداد ابتداءً لا يعجزه أن ينقله من طور إلى طور، ولا يحتاج إلى تراكم الأسباب التي نحتاجها نحن؛ لأنّ عجزنا عن تصور الكيفية لا يحد قدرة الخالق.

﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾؛ وما أشد وقع الواحدة هنا. عالم كامل، أجيال متراكمة، جبال وبحار ومدن وطرق وذكريات وممالك ومقابر ومكتبات وأسواق، ثم إذا بالتحول العظيم يتعلق بنفخة واحدة يأذن الله بها. وكأن السورة تريد أن تتزعزع من قلبك اعتقاداً خفياً بأن الاستقرار الطويل دليل على الاستمرار؛ فالشيء قد يبقى آلاف السنين ثم تنتهي صورته في لحظة، لأن طول المدة لا يمنحه حصانة من أمر الله.

والنفخ في الصور ليس تفصيلاً يستدعي من الإنسان أن يرسم الغيب بخياله أو يتكلف ما لم يخبره به الوحي؛ يكفي أن يؤمن بما أخبر الله، وأن يستقبل المعنى الذي يريد القرآن أن ينقله:

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

أن هذا العالم يسير إلى موعد محدد، وأن وراء انتظامه الحالي أمرًا إذا جاء نقل الخليقة كلها إلى المشهد الأخير.

إننا نعيش عادة وكأن الحاضر له حق طبيعي في الاستمرار، نضع المواعيد بعد سنوات، ونبني الخطط، ونؤجل التوبة، ونقول في أنفسنا إن الوقت متاح، حتى يصبح المستقبل في الشعور كأنه ملك لنا لا احتمال مفتوح. فتأتي نفخة واحدة لتعلم القلب أن الزمن ليس ملكه، وأن كل يوم يعطاه زيادة فضل لا حق مضمون، وأن الإنسان لا يملك من المستقبل إلا ما أذن الله له أن يبلغه.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.

الأرض التي تحملنا نُحْمَل.

هذه وحدها كافية لقلب صورة العالم في الذهن. نحن نعيش فوق الأرض حتى لا نعود نشعر بها؛ هي أكثر الأشياء رسوخًا في وعينا، المنصة التي تجري فوقها كل الأحداث، فإذا بالقرآن ينتزع منها دور «القاعدة الثابتة» ويضعها هي نفسها داخل الحدث: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ﴾.

ما كنت تظنه حاملاً، محمول.

وما كنت تظنه قاعدةً، متحول.

وما كنت تراه إطاراً لكل الأحداث، يصبح هو حدثاً.

ثم يقرن بها الجبال؛ تلك التي ارتبطت في الحس البشري بالثقل والرسوخ. وإذا احتاج الإنسان إلى صورة للثبات قال: كالجبل. وإذا أراد أن يصف الصلابة استعان به. ومع ذلك يقول الله: ﴿فَدُكَّتْ دَكَّةً وَاحِدَةً﴾. الأرض والجبال جميعاً تدخلان تحت فعل واحد، ويزول ذلك الفارق الهائل الذي يراه الإنسان بين صخرة صغيرة وجبل عظيم؛ لأن المخلوقات أمام قدرة الله لا تتفاوت كما تتفاوت أمام قوتنا.

وهذه من أعظم تربية القرآن للقلب: أن ينقله من الثقة بالشيء إلى الثقة بخالق الشيء. نحن نحب الثبات، فنبحث عن شيء نُسند إليه نفوسنا: مال، وظيفة، مكانة، بيت، شخص، صحة، خبرة، مجتمع، نظام، وكل هذه قد تكون من نعم الله وأسباب الاستقرار، لكن الخطأ يبدأ حين يتحول السبب في الداخل إلى «جبل» نعتقد أن حياتنا لا تهتز ما دام قائماً. ثم تأتي السورة فتقول لك إن الجبل نفسه يُدك.

فإن كان الجبل لا يملك الثبات من ذاته، فكيف بما دونه؟

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

إن الإيمان لا يطلب من الإنسان أن يعيش بلا أسباب، وإنما أن لا يضع قلبه داخل السبب. اعمل، وادخر، وابن، وتزوج، واطلب العلم، واتخذ ما تستطيع من أسباب القوة، ولكن اترك أعمق موضع في قلبك لله وحده؛ لأن كل ما سواه عرضة لأن يتغير، ومن بنى طمأنينته كلها على ما يتغير عاش مرعوباً ولو أحاط نفسه بألف حصن.

وفي تكرار ﴿وَاحِدَةً﴾ بعد ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ثم ﴿دَكَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ إحساس بصرامة النهاية وسرعتها؛ لا مجال للتدرج الذي يطمئن إليه الإنسان، ولا مهلة لإعادة الحسابات بعد بدء المشهد. ما دام زمن العمل قائماً فكل شيء قابل للتدارك، فإذا بدأت الحاقة انقلب الوقت من زمن اختيار إلى زمن ظهور النتيجة.

ثم تأتي الجملة التي كانت السورة كلها تسير نحوها:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

وقعت.

انتهى زمن الاستبعاد.

انتهت مرحلة الخبر.

انتهت المسافة بين «سيكون» و«كان».

كان الناس في الدنيا يقولون: متى؟ وكيف؟ وهل؟ ثم يصبح السؤال كله قديمًا؛ لأن الواقعة وقعت.

وما أشد وقع الفعل الماضي في هذا المقام: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. كأن القرآن، من شدة يقين وقوعها، يضعك أمامها وقد وقعت، فلا يبقى أمام القلب إلا أن يتعامل معها بوصفها حقيقة محسومة. وهذا من خصائص الخطاب القرآني في الحديث عن الآخرة: المستقبل الإلهي لا يحمل تردد المستقبل البشري؛ ما وعد الله به آتٍ حتى إن صياغته أحيانًا تُلقى على السمع كما لو أنه تم وانقضى.

ونحن نعرف في حياتنا الفرق بين خبر نوقن به وخبر نظنه؛ اليقين يغيّر الاستعداد. من علم يقينًا أن سفره غدًا جهّز متاعه، ومن شك بقي مترددًا. فكيف إذا كان الأمر الذي تنبأ له هو اليوم الذي ستُعرض فيه نفسك كلها؟ إن الخلل ليس دائمًا في المعرفة، بل في درجة حضورها؛ نحن نقول إن القيامة حق، لكن لو حضر هذا اليقين في بعض لحظاتها كما ينبغي لتغيرت كلمات كثيرة قبل أن تخرج، وتوقفت مظالم كثيرة قبل أن تبدأ.

ثم يتسع الانهيار من الأرض إلى السماء:

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾.

السماء؛ هذا السقف الهائل الذي عاش الإنسان تحته منذ أول يوم فتح فيه عينيه، تبدوله من فرط اتساعها وتماسكها شيئاً أبعد من أن يمسّه التحول. لكن الحاقة لا تترك في الكون شيئاً إلا وترده إلى حقيقة مخلوقيته. انشقت، ثم صارت واهية.

واللفظ مذهل: واهية. السماء التي لا يستطيع الإنسان أن يبلغ أطرافها ولا يحيط بأبعادها، توصف يومئذ بالوهن. وما معنى القوة بعد هذا؟ إذا كان هذا الخلق الهائل يضعف حين يأتي أمر الله، فليس في الوجود مخلوق يملك قوته في ذاته.

إن الأشياء التي نراها قوية ليست قوية استقلالاً، بل مستمسكة بما أمسكها الله به. قال سبحانه في موضع آخر إنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وهنا نرى المشهد حين يتغير نظام الإمساك الذي عهدناه؛ فإذا بما حسبناه أقصى الصلابة الكونية يدخل في الوهن.

وهذا المعنى إذا دخل القلب حماه من نوعين من الانحراف: من الغرور حين يملك، ومن اليأس حين يواجهه من يملك. فمن عرف أن السماء نفسها واهية أمام أمر الله لن يغتر بقدرته الصغيرة، ولن ينهار أمام قدرة إنسان آخر كأنها لا تُفهر. كل قوة بشرية تعيش داخل سماء سيأتي عليها يوم تكون فيه واهية.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ

وكل سلطان في الأرض يتحرك على أرض ستدك.

وهذا وحده يكفي لتحرير القلب من الخوف الذي يتجاوز حده.

ثم يرتفع المشهد إلى ما وراء عالمنا المألوف:

﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

هنا يبلغ النص منطقة الغيب الجليل التي لا يليق بالعقل أن يتعامل معها بعقلية الرسم والتجسيم، وإنما بالإيمان والتسليم والتعظيم؛ نثبت ما أثبتته الله من غير تكييف ولا تشبيه، ونعلم أن ما وراء عالم الحس من ملكوت الله أعظم من أن تحيط به مقاييسنا المحدودة. الملائكة على أرجاء السماء، ويحمل عرش الرحمن يومئذ ثمانية كما أخبر سبحانه، فنؤمن بالخبر ونقف عند حده، ولا نحاول أن ندخل عالم الغيب إلى قوالب المحسوس التي صنعها خيالنا من تجارب الأرض.

والعجيب أن الإنسان الذي ظن نفسه في الدنيا مركز الوجود يجد نفسه في ذلك اليوم داخل ملك لا يكاد يملك معه إلا أن يصمت. كم كان مشغولاً بنفسه؛ بمكانته، وبما قيل عنه، وبمن احترمه ومن لم يحترمه، حتى كأن الوجود كله دائرة صغيرة حول سيرته، ثم يفتح القرآن له مشهد الملكوت ليعيده إلى حجمه: أنت عبد من عباد الله في ملك عظيم،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ووراء السماء التي تراها خلق لا تراهم، ووراء ما تعرفه من العالم مراتب من الخلق لا يبلغها وهمك، وكل ذلك تحت سلطان رب واحد.

وهذا لا يحيط من قيمة الإنسان، بل يضع كرامته في موضعها الصحيح. قيمتك ليست أنك أكبر شيء في الكون، بل أن رب هذا الملك العظيم خاطبك، وهداك، وكلفك، وفتح لك باب معرفته، وجعل عملك الصغير في هذه الأرض ذا وزن عنده. العبودية هنا ليست تصغيراً للإنسان، بل تحريراً له من الحاجة إلى تضخيم نفسه كي يشعر بالقيمة.

ثم، بعد كل هذا الاتساع الكوني، وبعد النفخة والدك والانشقاق والمكوت، يفاجئك القرآن بالانتقال من الكون كله إلى أنت:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

هذه هي اللحظة التي نكتشف فيها أن انهيار العالم لم يكن نهاية المشهد، بل افتتاح المحكمة.

كانت الأرض تُدك.

وكانت السماء تنشق.

لكن القضية الأخيرة هي الإنسان.

من أكثر الكلمات كشفًا في القرآن؛ لأنها تنزع منك كل ما اعتدت أن تختبي وراءه. في الدنيا أنت تقدم نفسك بالطريقة التي تريد: تختار ما تظهره، وتخفي ما لا تريد أن يراه الناس، وتعيد تفسير مواقفك، وتصنع لنفسك سيرةً لفظيةً قد تكون أجمل من سيرتك الحقيقية. تستطيع أن تقول: قصدت الخير، وأن تبرر، وأن تنتقي من ذاكرك ما يحمي صورتك. لكن العرض يومئذ ليس عرضاً تديره أنت، بل عرضاً على من يعلمك قبل أن تنطق.

﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

لم يقل: لا يخفي عمل كبير، بل نفى الخفاء عن كل خافية. كل ما عاش في طبقات النفس التي لم يصل إليها أحد؛ النية التي خبأها، الحقد الذي سترته بابتسامة، الخير الذي لم يره الناس، دمة الخلوة، خوفك الصادق، خيانة صغيرة حسبتها ذابت في الزمن، معروف فعلته ثم نسيتته، ألم احتسبته ولم يعلم به أحد، كل ذلك داخل العلم والعرض.

وهنا تفقد الأقعة وظيفتها.

في الدنيا قد يصنع الإنسان من حسن الصورة بديلاً عن حسن الحقيقة؛ يهتم بأن يُظن به خير أكثر مما يهتم بأن يكون خيراً. وهذه واحدة من أدق آفات الروح؛ لأن الناس لا يرون

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إلا ظاهراً محدوداً، ومن السهل نسبياً إدارة الظاهر. لكن من آمن بـ ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ

خَافِيَةٌ﴾ نقل مركز الإصلاح إلى حيث ينبغي: إلى السريرة.

ليس أعظم النجاح أن يحبك الناس، بل أن يكون باطنك صالحاً حين يسقط رأي الناس من الميزان.

وليس أشد الخطر أن تفتضح عند البشر، بل أن تحمل إلى الله شيئاً كنت تعلم أنه يراه ثم أقت عليه.

وهذه الآية تحرر الإنسان حتى من الرياء الخفي؛ لأن من عرف أن الله يعلم الخافية لم يعد بحاجة إلى أن يبني حياته كلها حول أعين الآخرين. يستطيع أن يفعل خيراً لا يراه أحد، وأن يترك معصية لا يستطيع أحد اكتشافها، وأن يصبر في موضع لا ينال فيه ثناء، لأنه يتعامل مع علم لا تفوته التفاصيل.

ما أوسع المسافة بين أن يبدو الإنسان صالحاً وأن يكون صالحاً حين لا يراه إلا الله.

والحاقة هي اليوم الذي تزول فيه هذه المسافة.

وفي كلمة ﴿تُعْرَضُونَ﴾ أيضاً معنى العجز عن الانسحاب. في الدنيا يستطيع الإنسان أن يغادر

مجلساً لم يعجبه، أو يتهرب من سؤال، أو يرفض مقابلة، أو يؤجل قضية، لكن العرض

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

هناك ليس موعداً يقبل الاعتذار. أنت ماضٍ إليه لأنك جزء من الخليقة التي نُفخ فيها الصور.

ولهذا فإن أصدق استعداد للحاقة ليس أن تكثر من تخيل المشاهد وحدها، بل أن تصلح ما سيعرض.

اصلح الخافية قبل أن لا تبقى خافية.

رد الحق قبل أن يتحول إلى سطر.

نظّف نيتك قبل أن تصبح جزءاً من كُتّابك.

اعتذر اليوم، فإنك لا تعلم كيف ستبدو الخصومة غداً حين تسقط رواية كل طرف ويبقى الحق.

ولا تؤجل إصلاح نفسك انتظاراً لنسخة مثالية منك؛ الحاقة لا تسأل متى خطت أن تتغير، بل بأي حال انتهى عملك.

وهنا يلتقي أول السورة بهذا الموضع التقاءً مهيباً. في البداية قيل لك: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾، والآن بدأت تعرف شيئاً من جوابها: الحاقة هي اليوم الذي لا تبقى فيه الأرض أرضك التي

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

اعتدتها، ولا السماء سماءك التي عهدتها، ولا صورتك الاجتماعية صورتك التي تستطيع التحكم فيها؛ كل شيء يعود إلى حقيقته.

الأرض إلى مخلوقيتها.

السماء إلى مخلوقيتها.

وأنت إلى حقيقتك.

وهذا هو أعمق معنى للحاقة: سقوط كل ما كان يستر الحقيقة.

فليس أكثر ما ينبغي أن يخيف الإنسان انشقاق السماء، مع عظم ذلك المشهد، بل أن تُكشَف نفسه بعد انشقاقها، وأن يرى فيها ما لم يعمل على إصلاحه حين كان الإصلاح ممكناً.

ومن هنا تصبح هذه الآيات دعوةً إلى نوع أعمق من الصدق؛ أن تعيش الآن كما تحب أن تُعرض يومئذ، وأن تقلل الفجوة بين ما يعرفه الناس عنك وما يعلمه الله منك، وأن لا تكون علاقتك بالصالح علاقة صورة وإنما علاقة حقيقة.

فإن كانت الأرض ستدك، فلا تجعلها أكبر همك.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وإن كانت السماء ستُنشَق، فلا تجعل عالمك المادي هو كل العالم.

وإن كنت ستُعْرَض، فلا تجعل أعين الناس محكماتك الأخيرة.

الحكمة كلها أن تصل إلى ذلك اليوم وليس في قلبك ما تخجل أن يراه الله — وهو قد رآه

دائماً — وأن يكون كتابك شاهداً بأنك عرفت أنك عبد، فاستعددت للعرض قبل أن يأتي.

إن النفخة الواحدة لا تنهي العالم فقط؛ إنها تنهي إمكانية التظاهر.

وعندها تبدأ قصة الكتاب الذي سيعمله كل إنسان بيده.

الفصل الخامس

كِتَابُ الْيَمِينِ

حين يقرأ الإنسان عمره في ضوء النجاة

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ إِنَِّّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ ﴿
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

بعد أن بلغت السورة بالإنسان إلى لحظة العرض، وبعد أن نزعت عنه كل ساتر بقولها: ﴿لَا تَخَفْنِي مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾، يبدأ الآن فرز المصائر، لا على أساس المظهر الذي عاش به الإنسان بين الناس، ولا على أساس ما استطاع أن يقنع الآخرين به عن نفسه، بل على أساس الكتاب الذي حفظ العمر كله، والميزان الذي لا يدخل عليه وهم، والعلم الذي لم تفتته خلوة ولا نية ولا حركة قلب.

وهنا يخرج من رهبة العرض مشهدٌ من أكثر مشاهد القرآن إشراقاً وطمأنينة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إن إعطاء الكتاب باليمين ليس مجرد حركة في المشهد، بل إعلان عن انتقال الإنسان من خوف الموقف إلى أمن القبول؛ كأن اليد التي كانت في الدنيا تمتد إلى الطاعة، وتقبض عن الحرام، وتكتب الخير، وتعطي المحتاج، وتصلي وتعمل، صارت يومئذ تستقبل خلاصة ذلك الطريق. ولا يعني هذا أن النجاة ثمن آلي للعمل بعيداً عن رحمة الله، فكل فضل لله، وكل قبول برحمته، ولكن القرآن يربط الجزاء بالسعي حتى لا يعيش الإنسان على التمني المجرد؛ الرحمة لا تعني إلغاء العمل، بل هي التي تفتح له باب العمل وتقبله وتضاعفه وتتجاوز عن التقصير.

ثم تأتي المفاجأة الوجدانية:

﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَمْرًا نَكَّيَةً﴾.

يا له من مشهد يختصر معنى الطمأنينة كلها.

الإنسان في الدنيا حريص على إخفاء أشياء كثيرة من سيرته؛ يختار ما يريد أن يعرفه الناس، ويتنى لو محا من ذاكرة الآخرين مواقف ضعف، وربما عاش نصف عمره وهو يحرس صورته. لكن صاحب اليمين يومئذ بلغ من الأمن والفرح أن يدعو الآخرين إلى قراءة كتابه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ﴾؛ كَأَنَّ الْكَتَابَ لَمْ يَعِدْ شَيْئًا يَخْشَاهُ، بَلْ شَهَادَةٌ نَجَاتِهِ. مَا كَانَ مُسْتَوْرًا صَارَ مَأْمُونًا، وَمَا كَانَ سَيَخْفِيهِ لَوْ بَقِيَ عَلَيْهِ إِثْمٌ بَلَا تَوْبَةَ قَدْ سَبَقَتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ وَتَوْبَتُهُ وَسَعِيهِ، حَتَّى صَارَ مُجْمُوعُ الْعَمْرِ — بِمَا أَذْنُ اللَّهُ أَنْ يَثْبِتَهُ وَيَغْفِرَهُ — كِتَابًا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَمْدَهُ بِلَا خَوْفٍ.

وهذه الآية تفتح سؤالاً عميقاً في حياة الإنسان: هل نعيش اليوم بطريقة لو كُشف بعض تفاصيلها استحيينا من الناس، ثم ننسى أن الله لا يغيب عنه شيء؟ وكيف يمكن للمرء أن يطمح إلى يوم يقول فيه: اقرؤوا كتابي، وهو الآن يكتب فيه بإرادته ما يعلم أنه لا يجب أن يراه؟

ليست القضية أن يصير الإنسان معصوماً من الخطأ؛ فليس هذا شأن البشر، ولكن القضية أن لا يجعل الخطأ مقاماً، ولا الذنب هوية، ولا الغفلة بيتاً دائماً. قد يزل المؤمن ثم يرجع، ويضعف ثم يستغفر، ويخطئ ثم يصلح، ويكسره تقصيره فيفتح له الانكسار باباً كان الكبر يغلقه. والذي يغيّر الكتاب ليس تاريخ العثرة وحده، بل ما صنعتته العثرة في القلب بعدها.

ولعل من أجمل معاني هذه الآية أن الإنسان سيقراً يوم القيامة نفسه على نحو لم يقرأ به نفسه في الدنيا؛ ستظهر له أعمال ظنها صغيرة فإذا بها كبيرة عند الله، وستنكشف له مواضع

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

لطف لم يكن يراها، وربما رأى أثر كلمة قالها صادقاً ثم نسيها، أو صدقة خرجت خفية ثم ظنها ذهبت، أو موقفاً صبر فيه ولم يصفق له أحد، فإذا كل ذلك حاضر في كتاب لا يضيع فيه شيء..

ما أعدله من كتاب، وما أرحمه للمؤمن.

ثم يكشف صاحب اليمين عن السر الذي كان يتحرك خلف حياته:

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾.

الظن هنا هو اليقين المستقر الذي عاش به، لا التردد العابر. وهذا التعبير شديد الجمال؛ فهو لا يقول: كنت أعرف أن هناك حساباً، بل أني ملأ حسابيه. لقد نقل قضية الآخرة من فكرة عامة إلى علاقة شخصية.

كثير من الناس يؤمنون بالحساب بوصفه مفهوماً، لكن قلة هم الذين يعيشون على وعي: أنا سأقف، وأنا سأسأل، وهذا الذي أفعله الآن داخل حسابي أنا.

وهنا يظهر الفارق بين المعرفة الدينية واليقين الذي يحكم السلوك. المعرفة تقول لك إن الكذب حرام، لكن يقين اللقاء يجعلك تتوقف قبل الكلمة. المعرفة تقول إن الظلم محرم،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

لكن يقين الحساب يجعل المظلوم حاضراً في ضميرك حتى إن لم يكن قادراً على الانتقام.

المعرفة تخبرك أن الصلاة واجبة، لكن يقين اللقاء يجعلها موعداً لا عادة.

إن صاحب اليقين لم ينبج لأنه عرف أخبار القيامة فحسب، بل لأن أخبار القيامة دخلت في صناعة أيامه.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾؛ أي إنني عشت ولم أعتبر العمر طريقاً بلا نهاية، ولم أنصرف في النعم كأنها ملكية بلا سؤال، ولم أتعامل مع الناس كأنهم أدوات في عالمي الخاص، لأنني كنت أعلم أن كل شيء سيلتقي بي مرة أخرى في الحساب.

وهنا معنى مذهل: الإنسان لا يهرب من أعماله، بل يسير إليها.

ما تفعله اليوم لا يبقى خلفك كما تظن؛ هو يذهب أمامك وينتظرك.

والحساب ليس رجوعك إلى الماضي فحسب، بل لقاءك بالماضي بعد أن صار حاضراً لا يمكن تعديله.

ولهذا كان من الحكمة أن يراجع الإنسان نفسه قبل أن يلقي حسابه؛ أن يصنع لنفسه في الدنيا محاکم صغيرة من الصدق، حتى لا يفاجأ في المحكمة الكبرى. يسأل نفسه: من ظلمت؟

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

ما الذي أبرر له بلا حق؟ أين يختبئ رائي؟ ماذا أفعل لو انكشف هذا الأمر الآن؟ هذا

النوع من المحاسبة ليس جلدًا للذات، بل رحمة بها قبل أن يغلق زمن العمل.

ثم تأتي النتيجة في عبارة تكاد تُشع راحة:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

لم يقل: له نعيم فقط، بل عيشة راضية؛ كأن الرضا قد سرى في الحياة نفسها حتى لم يبق فيها

شيء يشكو صاحبه منه. في الدنيا لا توجد عيشة كاملة؛ مهما اتسعت النعمة بقي معها

خوف من الفقد، ومهما صح الجسد بقي عليه قانون الشيخوخة، ومهما أحبت أحدًا دخل

الموت بينك وبين أمان البقاء، ومهما استقرت الحياة بقي فيها شيء يقلقها. أما هناك فليست

العبرة بكثرة اللذة فقط، بل بزوال النقص الذي كان يفسد كل لذة.

عيشة راضية: لا شيء فيها يجعلك تتنى لو كان غير ما هو عليه.

وهذه منزلة لا يعرفها الإنسان في الدنيا كاملة؛ نحن نرضى عن أشياء وننزعج من أخرى،

نستمتع ونحن خائفون من النهاية، نملك ونحن قلقون من الفقد. أما الرضا هناك فليس قناعةً

نفسية فحسب، بل وصف لحياة بلغت من الكمال أن رضيت بها النفس من كل جهة.

ثم يقول:

العلو هنا يفتح أمام الروح معنى أوسع من الارتفاع المكاني؛ علو في المنزلة، وعلو في الطهر، وعلو في الصفاء، وعلو عن كل ما كان يثقل القلب في الحياة الأولى. وربما عاش صاحب اليمين في الدنيا لا يلتفت إليه أحد، قليل الحظ من الشهرة، متواضع المكان في أعين الناس، لكنه يومئذ في جنة عالية.

وهذا من أعظم انقلاب المقاييس في القرآن: الذين يظن المجتمع أنهم عالون قد يكونون عند الله هابطين، ومن لم يرههم الناس شيئاً قد يرفعهم الله إلى مقام لا يخطر لهم على بال. ولذلك لا تجعل ترتيب الناس معياراً نهائياً لموقعك؛ فالمنصة التي تصنعها الدنيا ليست هي المنصة التي توزع عليها المنازل الأخيرة.

كم من إنسان كان في المجالس مؤخراً وهو عند الله مقدم.

وكم من اسم كان عالياً في الدنيا ثم هلك عنه سلطانه.

إن المؤمن لا يحتقر مكانه الصغير إذا كان فيه مع الله، لأن الآخرة بلد إعادة الأجسام إلى حقيقتها.

ثم يقول تعالى:

الثمرة قريبة، لا مشقة في بلوغها، ولا حاجز بين الرغبة والنعمة. وهذا القرب يلبس شيئاً عميقاً في النفس التي تعبت في الدنيا من المسافات؛ كم من خير أرادته ثم أعاقته الأسباب، وكم من راحة طلبتها فوجدت قبلها تعباً طويلاً، وكم من ثمرة في الحياة لا تنال إلا بعد خوف وانتظار ومنافسة.

أما هنا فالقطوف دانية.

وكان الجزاء يحمل في هيئته جبراً لتعب الطريق؛ من باعد بينه وبين الحرام في الدنيا، قُرب إليه النعيم في الآخرة. من أخر لذة عاجلة لأنه خاف الله، صار الخير هناك دانياً لا يحتاج إلى مقاومة ولا صبر على شهوة. ما منع نفسه منه الله لم يكن حرماناً مطلقاً، بل تأجيلاً إلى دار لا يختلط فيها اللذات بالندم.

وهذه إحدى قواعد الإيمان التي تحتاج النفس أن تعيها: ليس كل تأخير خسارة، وليس كل ترك حرماناً، وليس كل ما لا تأخذه الآن قد فاتك. قد يكون الله يدرك في الدنيا على أن تؤمن بأن بعض الأشياء تُترك هنا لتعطى هناك أنقى وأبقى.

ثم يأتي الخطاب الذي يفيض تكريماً وطمأنينة:

بعد الحاقة، وبعد القارعة، وبعد الطاغية، وبعد الريح العاتية، وبعد دك الأرض وانشقاق السماء والعرض، تسمع النفس هذه الكلمات: كلوا واشربوا هنيئًا.

ما أعظم الفرق بين رهبة الطريق وطمأنينة الوصول.

ولفظ هنيئًا يختصر كمال النعيم؛ نعمة لا يعقبها مرض، ولا يفسدها ذنب، ولا يخالطها خوف، ولا يأتي بعدها حساب جديد، ولا تتقلب لذتها حسرة. في الدنيا قد تأكل وأنت مغموم، وتشرب وأنت خائف، وتملك وأنت تحرس ما ملكت، أما الهنيء الحقيقي فهو ما لا يفسده شيء من الخارج ولا الداخل.

ثم يكشف الله العلاقة بين هذا النعيم وبين التاريخ الذي صار وراءهم:

﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

وهنا تأتي واحدة من أرق وأعمق عبارات السورة: الأيام الخالية.

تلك الأيام التي نعيشها الآن.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

هذه اللحظة التي تبدو ممتدة وثقيلة وممتلئة بالتفاصيل، سيجيء عليها زمن تُسمى فيه ببساطة: الأيام الخالية؛ الأيام التي مضت، التي لم تعد قادرة على أن تجرحك، ولا على أن تغريك، ولا على أن ترهقك، وبقي منها فقط ما أرسلته فيها أمامك.

كم يحمل هذا الوصف من عزاء للمبتلى.

الألم الذي يملأ يومك الآن سيصير من الأيام الخالية.

المرض الذي يحاصرك سيصير من الأيام الخالية.

المعركة التي تظن أنها لن تنتهي ستصبح يوماً من الأيام الخالية.

الفتنة التي تقاومها، والشهوة التي تصبر عنها، والإهانة التي احتسبتها، والصدقة التي أخرجتها مع حاجتك، والصلاة التي قمت إليها وأنت متعب، كلها ستنتقل من حاضر ثقيل إلى ماضٍ خفيف، لكن أثرها لن يضيع.

وهنا ينتصر القرآن على طغيان اللحظة؛ فالإنسان حين يتألم يتوهم أن ألمه هو العالم كله، وحين يشتهي يظن أن تفويت الشهوة كارثة نهائية، وحين يخاف يظن أن الخوف لن يزول. فتقول له الآية: سيأتي يوم ينظر فيه إلى هذا كله من بعيد ويسميه الأيام الخالية.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

فلا تعطِ يوماً زائلاً قدرةً على أن يفسد لك داراً باقية.

ولا تجعل شهوة تمر في دقائق تكتب عليك حسرة تمتد.

ولا تجعل خوفاً عابراً يدفعك إلى خيانة يقينك.

إن أكثر ما يحتاج إليه الإنسان في لحظات الضعف هو أن يرى الحاضر من جهة المستقبل؛

أن يعرف أن ما يعيش فيه الآن ليس مكاناً دائماً، وإنما صفحة ستطوى. حينها يستطيع أن

يتحمل، لا لأنه لا يتألم، بل لأنه يعرف أن الألم ليس الحكاية كلها.

﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾؛ والسلف هو ما تقدمه أمامك. وكأن أعمال الحياة لا تسقط وراء ظهرك،

بل تسافر إلى المستقبل قبلك. أنت كل يوم ترسل شيئاً إلى غدك الأبدى؛ كلمة، نية، ظلماً،

صدقة، صلاة، توبة، أمانة، خيانة، ثم تمضي بعد ذلك حتى تلقى ما بعثت.

وهذه صورة تقلب مفهوم الزمن؛ نحن نتصور أننا نترك الماضي خلفنا، لكن القرآن يقول إن

أثر الماضي أمامك.

إنك تسير إلى أعمالك.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وما تزرعه في هذه الأيام ستجده هناك على هيئة عيشة راضية، أو — والعياذ بالله — على هيئة شيء آخر ستعرضه السورة بعد قليل.

وفي الآية أيضاً ميزان دقيق بين العمل والفضل؛ فالله ينسب إليهم ما أسلفوا تكريماً لسعيهم، مع أن القدرة على العمل والتوفيق إليه وقبوله كلها من فضله. وهذا من تمام رحمته: يعطيك القوة، ويدلك على الطريق، ويعينك، ثم ينسب العمل إليك ويجازيك عليه أضعافاً.

وما أكرم رباً يجعل من الطاعة التي وفقك إليها سبباً في أن يقول لك يوم القيامة: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم.

إن هذا الفصل كله يبدل صورة الآخرة في النفس؛ ليست القيامة رعباً محضاً للمؤمن، بل هي أيضاً لحظة انكشاف أجمل ما كان يرجوه. اليوم الذي يفزع فيه الكون قد يكون بالنسبة إليه بداية نهاية الخوف. الحاقة ليست مرعبة للجميع بالمعنى نفسه؛ بعض الناس يدخلها حاملاً كتاباً يود لو قرأه الخلق.

وهنا تظهر حكمة الإيمان بالآخرة: أنه لا يصنع قلباً يهرب من الحياة، بل قلباً يعرف كيف يستثمرها. الأيام الخالية ليست أياماً محتقرة؛ هي أعلى مرحلة لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تكتب فيها كتابك.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

في الجنة لا تستطيع أن تضيف حسنة إلى كتاب الدنيا.

وفي يوم العرض لا تستطيع أن تعتذر وتعود لتصلح.

الآن فقط تستطيع.

ولذلك فقيمة الحياة ليست في طولها وحده، بل في أنها زمن الكتابة.

كل صباح ورقة جديدة.

كل قرار سطر.

كل توبة محو ورحمة.

كل طاعة إضاءة.

كل ظلم بقعة سوداء ما دام لم يُتَب منه ويُرد الحق.

والإنسان لا يدري متى توضع النقطة الأخيرة.

ومن هنا يصبح صاحب اليمين صورةً لا للناجي فقط، بل للإنسان الذي فهم سر الزمن

مبكراً؛ عرف أن هذه الأيام ستخلو، فملاًها بما يبقى. لم يخدع نفسه ببريق اللحظة، ولم يطلب

أن يأخذ كل شيء الآن، لأنه كان يعرف أن وراء الآن داراً أخرى.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ولعل أعمق ما في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ أن اليقين لم يكن مكافأته فقط بعد الموت؛ لقد أنقذه قبل الموت أيضاً. أنقذه من أن يعبد نظرات الناس، ومن أن يجعل المال معيار القيمة، ومن أن يتحول إلى عبد للشهوة، ومن أن يظلم لأنه قادر، ومن أن ينهار إذا فائته حظوظ صغيرة؛ فن عرف أنه ملاق حسابه عاش حياته بميزان أكبر من يومه.

وهكذا تصبح الآخرة مصدر حرية في الدنيا.

من عرف أن العيشة الراضية هناك لم يعد مضطراً إلى انتزاع كل لذة هنا.

ومن عرف أن الجنة عالية لم يعد محتاجاً أن يعلو على الناس بالباطل.

ومن عرف أن قطوفها دانية استطاع أن يصبر عن ثمرة محرمة قريبة.

ومن عرف أن الأيام خالية استطاع أن يتحمل يوماً ثقیلاً دون أن يبيع مستقبله الأبدي لينجو من ثقله.

هذه هي هندسة اليقين في سورة الحاقة: تبدأ بخبر يهز القلب، ثم تتحول إلى خلق، ثم إلى قرار، ثم تظهر يوم القيامة في صورة كتاب يمين.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

واللحظة الأشد جمالاً أن صاحب اليمين لم يقل: لقد كنت كاملاً، ولا قال: لم أخطئ، بل

ذكر أصل الطريق كله في جملة واحدة: كنت أعلم أنني سألقى حسابي.

وهذا هو الفارق بين من عاش داخل الدنيا، ومن عاش الدنيا وهو يرى ما وراءها.

الأول تنتهي الأشياء عند حدود عينه.

والثاني يرى في كل يوم صفحة من كتاب سيقروه مرة أخرى.

فيا من لا تزال أيامه لم تصبح كلها أياماً خالية: اكتب فيها ما تحب أن تجده حين تُعطى كتابك.

لأن الفرحة التي تقول يومئذ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ﴾ تُصنع الآن، في أشياء صغيرة جداً قد لا يسمع بها أحد.

في صلاة بينك وبين الله.

في حق رددته.

في كلمة أمسكتها.

في قلب عفوت عنه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

في درهم أخرجته.

في ذنب بكيت منه.

وفي يقين بقي حياً داخل كل ما حاولت الدنيا أن تقنعك أنها هي كل شيء..

فمن عاش اليوم وهو يرى الحساب من وراء الغيب، جاء يوم الحساب فرأى ثمرة ذلك اليقين عياناً.

وهناك، حين تصير هذه الحياة كلها أياماً خالية، يعرف الإنسان أن شيئاً واحداً منها لم يكن صغيراً حقاً.

الفصل السادس

كِتَابُ الشَّمَالِ

حين تنقلب الحياة التي أحببناها إلى حسرة

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ ۖ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ۖ خُدُوهُ فَغُلُوهُ ۖ ثُمَّ ابْجِمْ صَلَوَهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾

إذا كان الفصل السابق قد فتح نافذةً على الفرح الذي يبلغ بصاحبه أن يرفع كتابه أمام الخلائق ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ﴾، فإن السورة لا تترك النفس تستريح طويلاً في ذلك الضوء، بل تنقلب الصفحة لتكشف الوجه الآخر للحساب؛ لأن الحاققة ليست يوم تعزية عامة، بل يوم تمييز، ويوم تنكشف فيه الطرق التي بدت في الدنيا متجاوزة فإذا بينها في النهاية من البعد ما بين الجنة والجحيم. هنا رجل آخر يحمل كتاباً آخر، لكن الفرق لم يبدأ عند اليد التي استلمت الكتاب؛ لقد بدأ قبل ذلك بسنوات، في قلب كان يرى الآخرة بعيدة، وفي قرار

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

كان يُتخذ بلا حساب، وفي حق كان يُؤكل لأن صاحبه ضعيف، وفي ذنب كان يتكرر حتى صار مألوفاً، وفي دنيا بدت لصاحبها واسعةً إلى حدٍّ جعله لا يرى وراءها شيئاً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾.

الجملة وحدها تكفي لتغيير لون المشهد. الكتاب هو الكتاب من حيث كونه سبباً للعمل، لكن استقبال الإنسان له هو الذي يكشف المصير. كانت الكتب في الدنيا وسائط للعرفة، أما هذا الكتاب فهو مرآة العمر؛ لا يقرأ فيه الإنسان كلاماً عن نفسه، بل يقرأ نفسه وقد تحولت إلى كلمات مثبتة لا يستطيع محوها. وهنا تظهر إحدى أعظم حقائق القيامة: أن الإنسان لا يفاجأ بشيء غريب عنه، بل يلتقي ما صنعه، ويجد الطريق الذي مشى فيه وقد استحال نتيجة.

ولهذا لا يبدأ صاحب الشمال بالاعتراض على عدالة الحساب، ولا يستطيع أن يقول إن الكتاب كذب عليه، بل تنفجر منه أمنية واحدة:

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ﴾.

ما أعجب الفرق بينه وبين صاحب اليمين. ذاك يدعو الخلق إلى القراءة، وهذا يتنى لو لم ير الكتاب أصلاً. هناك من عاش في الدنيا يحرس أسرارهِ من البشر، لكنه لم يحرس قلبه من

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الذنب؛ فإذا جاء اليوم الذي تسقط فيه كل الجدران، لم يعد يخشى أن يعرف الناس فقط، بل صار يتنى أن لا يعرف هو نفسه ما فيه.

والحقيقة أن الكآب لم يصنع الفضيحة؛ العمر هو الذي صنعها. الكآب مجرد كشف لما كان موجوداً. وهذا معنى يحتاجه الإنسان في حياته؛ فكثيراً ما يخاف من ظهور الخطأ أكثر من خوفه من الخطأ نفسه، ويهتم بأن لا يكتشف أكثر من اهتمامه بأن لا يفعل. فإذا استقرت الحاقّة في القلب انعكس الميزان: أخطر ما في الذنب ليس أن يراك الناس، بل أن يكون واقعاً في علم الله ثم تمضي عليه بلا توبة.

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ﴾؛ أمنية متأخرة جداً. والقرآن حين ينقل لنا هذه الأمنية الآن إنما يجعلها تحذيراً مبكراً؛ أنت لا تزال في الزمن الذي تستطيع فيه أن تغير محتوى الكآب، فلا تنتظر اللحظة التي يصبح فيها التمني بديلاً عاجزاً عن العمل.

ثم يقول:

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ﴾.

إنه لا يتنى فقط لو لم يأخذ الكآب، بل لو لم يعرف حسابه أصلاً؛ لأن المعرفة التي كان يهرب منها في الدنيا أصبحت الآن أمامه بأقصى درجات الوضوح. وهنا مفارقة موجهة:

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

كان يستطيع أن «يدري» في الدنيا بطريقة تنجيه؛ أن يعرف أن هناك حساباً فيستعد له، لكنه اختار الغفلة، فإذا به يوم القيامة يتمنى لو لم يعرف الحساب بعدما صار معرفته به عذاباً.

فالجهل ليس دائماً راحة. قد يكون الإنسان في الدنيا متمعداً ألا يسأل عن حكم، وألا يراجع نفسه، وألا يفكر في المصير، لأنه يريد أن يحتفظ بحياة مريحة لا يزعجها الضمير. لكنه لا يستطيع أن يحول تجاهله للحقيقة إلى إلغاء لها. وما لا تريد أن تعرفه اليوم قد تعرفه غداً في وقت لا تنفع فيه المعرفة.

إن من رحمة الله أن يجعل العلم بالحساب قبل الحساب. وأن يجعل القرآن يخبرك بما ستتمنى يومها لو أنك لم تعرفه، حتى تعرفه الآن على وجه ينجيك لا على وجه يعذبك.

ثم ترتفع الحسرة إلى مستوى أعمق:

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾.

يرى كثير من المفسرين أن المراد الموتة الأولى؛ يتمنى لو كانت قاضية عليه، منتهية به إلى العدم فلا بعث بعدها ولا حساب. ويا له من انقلاب في معنى الموت؛ في الدنيا كان

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

الإنسان يخاف الموت لأنه يقطع عليه شهواته ومشاريعه وملكه، فإذا هو الآن يتمنى لو أن الموت كان النهاية المطلقة.

لقد كان يريد الحياة مهما كان ثمنها، ثم صار يتمنى الفناء.

وهنا يكشف القرآن أن البقاء ليس نعمة في ذاته؛ النعمة في نوع البقاء. طول الحياة لا يكون خيراً إذا كانت تقود إلى مزيد من الإصرار، والخلود ليس سروراً إذا كان في العذاب. لذلك لا ينبغي أن يسأل الإنسان فقط: كيف أطيل حياتي؟ بل: إلى أي نهاية تقودني حياتي؟

كم من الناس يجعل الموت أعظم مخاوفه، بينما القرآن يرينا على خوف أعمق: أن نصل إلى الموت ونحن غير مستعدين لما بعده. الموت نفسه بوابة، والقضية ليست في عبور الباب بل فيما أعددت للدار التي وراءه.

ثم تأتي أول مراجعة لأعظم ما كان يعول عليه في الدنيا:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾.

المال حاضر؛ لكنه غائب عن وظيفته التي منحه إياها صاحبه. ليس المعنى أنه لم يكن نافعا في شيء، فقد كان يستطيع أن يكون باباً للخير، وأن يطعم به مسكيناً، ويصل به رحماً،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ويعين محتاجاً، ويقم به حقاً؛ لكن الكارثة أنه لم يستخدمه طريقاً إلى الله، بل استعمله حصناً نفسياً يوهمه بالاستغناء.

وهنا الفرق بين أن تملك المال وأن يملكك المال.

المال نعمة حين يكون في اليد، ويصير فتنة حين ينتقل إلى موضع الأمان في القلب. فإذا أحس الإنسان أن رصيده هو الذي يحميه، وأن قدرته الشرائية تشتري له كل المخرج، يبدأ شيء من التوحيد بالاضطراب في داخله دون أن يشعر. والحاقة تعيد المال إلى حقيقته في جملة واحدة: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾.

ما أقسى أن يكتشف الإنسان أن الشيء الذي قضى نصف عمره يجمعه لم يستطع أن يدفع عنه لحظة واحدة مما يخشاه.

وهذه ليست دعوة إلى ترك المال، بل إلى إنقاذ القلب من عبادته؛ أن يكون المال خادماً لمصيرك لا سيّداً عليك، وأن يمر من يدك إلى الخير قبل أن تمر أنت إلى يوم لا تستطيع فيه شراء حسنة واحدة.

كان يستطيع أن يجعل المال شاهداً له.

فجعله شاهداً على غفلته.

ثم تأتي الجملة التالية، وهي أكثر قسوة:

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾.

السلطان أوسع من مجرد منصب؛ هو كل ما كان يمنح الإنسان قدرةً على التأثير والدفع والمنع، من مكانة وجاه وحقبة ونفوذ وأتباع. كان يستطيع في الدنيا أن يقول فيُسمع، وأن يأمر فيُطاع، وأن تمنع صورته الآخرين من مساءلته، ثم يأتي اليوم الذي لا يبقى معه من كل ذلك شيء.

﴿هَلَكَ عَنِّي﴾؛ لم يقل فقط: ذهب، بل هلك. كأن السلطان الذي ظنه جزءاً من ذاته انقطع عنه انقطاعاً كاملاً، وبقي الإنسان بلا زخارف المنصب، مجرد عبد أمام ربه.

وهذه من أشد لحظات الحاقة صدقاً؛ ففي الدنيا تختلط الذات بألقابها. يعتاد الإنسان أن يُنادى بمنصبه حتى يظن أنه هو المنصب، وأن احترام الناس للكرسي احترام لذاته، وأن قدرته على تحريك الآخرين دليل على قيمة مطلقة فيه. ثم تسحب القيامة الكرسي واللقب والحاشية دفعةً واحدة، وتقول له: من أنت الآن؟

كل سلطان لا يصلح لك جواباً عن هذا السؤال سلطان ناقص.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

والإنسان العاقل لا يترك منصبه يبتلع إنسانيته؛ يعرف أن ما معه عارية زمنية، وأن أكرم ما يستطيع أن يفعله بالسلطة أن يحولها إلى أمانة قبل أن تتحول إلى خصم.

وما أوجع مقابلة هاتين الآيتين مع حياته السابقة: ماليه... سلطانيه. كأن الرجل يعدد آخر الأعمدة التي كان يسند إليها نفسه، ثم يشاهدها تنهار واحداً بعد واحد. المال لم يغني، والسلطان هلك، ولم يبق إلا الشخص الذي كان محتبئاً وراءهما.

الحاقّة هي اليوم الذي تُجَرَّد فيه النفس من كل ما كان يمنحها وزناً مصطنعاً.

ثم ينتهي صوت الرجل.

لم يعد هو المتكلم.

ويأتي الأمر من فوق:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾.

ما أشد هذا الانتقال. كان قبل لحظات يقول: يا ليتني... ما أغنى... هلك... ثم انقطع كلامه، وجاء الأمر فيه. كان في الدنيا ربما من الذين يقولون: خذوه، احبسوه، امنعوه، اطردهوه؛ والآن صار هو موضوع الفعل.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

﴿خُذُوهُ﴾؛ كلمة تكشف سقوط الاستقلال كله. الإنسان الذي بنى حياته على أنه يفعل ما يريد يكتشف أنه لم يكن خارج سلطان الله لحظة واحدة، وإنما أهل واختبر وأعطى مساحة الاختيار، فلما انتهى الاختبار عاد إلى الحكم الذي لا يستطيع دفعه.

ثم ﴿فَعْلُوهُ﴾؛ تقييد الحركة التي طالما استخدمت في السير إلى ما لا يرضي الله. وإذا كانت الحرية في الدنيا نعمة ومسؤولية، فإن من أساء استعمالها حتى لقي الله مصرًا على الجحود رأى كيف تنقلب المساحة التي أُعطِيَها للاختيار إلى قيد.

والقرآن لا يعرض هذه الصور ليشبع خيالًا مظلمًا، وإنما ليخلق في الإنسان خوفًا أخلاقيًا ينقذه من الطريق قبل أن يصل إلى نهايته. ما دام يسمع: ﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ وهو حي، فهو لم يُؤخذ بعد. هذه الآية نفسها باب نجاة لمن سمعها بقلبه؛ لأنها تخبره بالنهاية في اللحظة التي ما زال قادرًا فيها أن يغير الاتجاه.

ثم:

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾.

تأتي ثم فتزيد المشهد ثقلًا؛ مرحلة بعد مرحلة، وحسرة فوق حسرة. والجحيم ليست صورة أدبية رمزية يُفرَّغ بها الوعيد من حقيقته، بل غيب أخبر الله به فنؤمن به كما أخبر، ونقف

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

عند حد الوحي، وندع أثر الإنذار يعمل في القلب كما أراده الله: خوفاً يقود إلى التوبة لا إلى اليأس، وإلى العمل لا إلى الشلل.

فالقرآن الذي يخبر بالعذاب هو نفسه الذي فتح باب المغفرة في عشرات المواضع، وليس المقصود أن يعيش الإنسان قانطاً، بل أن لا يحول الرجاء إلى مخدر يمنعه من الإصلاح. الرجاء الصادق يقول: إن ربي غفور، فلأرجع إليه.

أما الغرور فيقول: إن ربي غفور، فلأستمر.

وبينهما فرق المصير كله.

ثم تأتي صورة أخرى بالغة الهيبة:

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

نؤمن بالخبر كما جاء، ونترك تحديد كيفية الغيب لله؛ فلا حاجة إلى تحويل النص إلى مادة للتخمين، فالمقصود أعظم من ذلك: الإنسان الذي ظن نفسه طليقاً من أمر الله يجد نفسه داخل قيد لا يستطيع الخروج منه. كان يستطيع في الدنيا أن يضع لنفسه حدوداً اختيارية

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

تحفظه؛ حدود الحلال والحرام، وحدود الرحمة، وحدود التقوى، لكنه كسرها، بفجاءت نهاية فيها قيد لا يختاره.

وهنا تظهر مفارقة قرآنية عميقة: من رفض حدود الله التي تحرر، انتهى إلى قيود العقوبة.

حدود الله في الدنيا ليست سجنًا للإنسان كما يتوهم الغافل، بل سياج يحمي حريته الحقيقية؛ تحميهِ من عبودية الشهوة، ومن ذل الطمع، ومن قيد الخوف من الناس، ومن أسر المال. فإذا كسر كل تلك الحدود باسم التحرر، قد يكتشف في النهاية أنه لم يكن يتحرر، بل كان ينتقل من عبودية الله التي هي عزّه إلى عبودية ما يهلكه.

والسورة هنا لا تصف خطأً صغيراً انقطع دون سياق؛ الآيات التي ستأتي بعدها ستكشف سبب هذا المصير: خلل في أصل الإيمان، وقسوة تجاه المسكين. كأن الوحي يقول إن العذاب الكبير له جذور في الداخل؛ يبدأ من قلب لا يعظم الله، ثم يظهر في مجتمع لا يشعر بالجائع.

ولكن قبل الوصول إلى تلك الجذور، يقف الإنسان أمام هذا المشهد كله ويسأل نفسه: كيف يمكن لمال وسلطان كانا في الدنيا محور الحياة أن يصبحا يومئذ موضوع اعتراف بالعجز؟

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

الجواب أن الدنيا تسمح للأشياء أن نتضخم لأنها لم تصل بعد إلى الميزان الأخير.

المال يبدو كبيراً لأن كثيراً من حاجاتك هنا تُشترى به.

والسلطان يبدو ضخماً لأن كثيراً من الأبواب تفتح له.

لكن يوم القيامة تتغير طبيعة الحاجات؛ لا يمكنك أن تشتري غفراناً، ولا أن تؤجر أحداً ليحمل عنك ذنباً، ولا أن تستخدم نفوذك لتعديل كتاب، ولا أن توظف محامياً يغيّر حقيقة عليها الله.

هناك تسقط وظائف الدنيا كلها.

ولهذا فإن من الحكمة أن يستخدم الإنسان كل ما يملك في ما ينفعه بعد سقوط وظيفة الملك. المال الذي سينتهي أثره الدنيوي يمكن أن يتحول الآن إلى صدقة يبقى أثرها، والسلطة التي ستزول يمكن أن تتحول إلى عدل يبقى، والعلم الذي قد ينسى الناس اسم صاحبه يمكن أن يصير هداية تشهد له، والكلمة التي تضيع من أفواه الناس يمكن أن تبقى في الكتاب.

هذه هي عبقرية الرؤية الأخروية: لا تطلب منك أن تترك الأشياء، بل أن تحولها من زائل إلى باقٍ.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

خذ مالك الذي سيقول غيرك عنه يوماً: ما أغنى عني ماليه، واجعله اليوم يغنيك من جهة أخرى حين تضعه في موضع يحبه الله.

وخذ سلطانك الذي سيهلك عنك، واجعل أثر عدلك أبقى منه.

وخذ وقتك الذي سيصبح من الأيام الخالية، واكتب فيه ما تحب أن تقرأه.

إن الفرق بين صاحب اليمين وصاحب الشمال لم يكن في امتلاك الدنيا من عدمه، بل في المعنى الذي عاش به داخلها.

قد يملك المؤمن مالاً وسلطاناً ويجعلهما جسراً.

وقد يملكهما آخر فيجعلهما جداراً بينه وبين الله.

الدنيا لا تحكم وحدها على المصير؛ طريقة حملها هي التي تكشف ما صنعت بك.

ومن أوجع ما في مشهد صاحب الشمال أنه لا يذكر لذة واحدة مما عاشه. كل الشهوات التي من أجلها ضحى، وكل المكاسب التي ربما خسر لأجلها ضميره، وكل المرات التي قال فيها لنفسه: سأستمع الآن ثم أفكر لاحقاً، اختفت من لغته تماماً. لم يقل: كان يستحق. لم يقل: على الأقل عشت كما أردت. لم يبق من كل ذلك إلا: يا ليتني.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

والحسرة هي اللحظة التي يرى فيها الإنسان السعر الحقيقي لشيء بعد أن دفعه.

في الدنيا قد تبدو المعصية رخيصة لأن الفاتورة مؤجلة.

وقد يبدو الظلم مربحاً لأن الحساب لم يأت.

وقد يبدو التنازل عن الحق ذكياً لأن الناس صفقوا.

ثم يأتي يوم تتجمع فيه كل التكاليف دفعة واحدة.

ولهذا فإن الإيمان بالحاقة يمنحك قدرة نادرة: أن ترى السعر قبل الشراء.

أن تقول للشهوة: لست وحدك في الصورة، وراءك حساب.

وللمال: أنت نافع، لكنك لست منجياً.

وللسلطة: أنت أمانة، لا هوية.

وللنفس: لا تجعل لحظة عابرة تصنع أمنية أبدية تقول: يا ليتني.

إن أعظم النجاحات الأخلاقية قد تحدث في لحظة لا يراك فيها أحد، حين يكون الحرام

قريباً، والمصلحة واضحة، ولا يمنعك إلا يقين خفي بأن كتاباً يكتب.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

تلك اللحظة الصغيرة قد تكون الفارق بين كُتَّابين.

وحين تقرأ: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوتَ كِتَابِيَهٗ﴾ ينبغي أن تسمع فيها نداءً من مستقبلك الممكن إلى

حاضرِكَ: لا تكتب اليوم ما تمنى غداً لو أنك لم تقرأه.

فالكُتَّاب لم يُغلق بعد.

وما زالت لك يد تستطيع أن ترد حقاً، ولسان يستطيع أن يستغفر، وقلب يستطيع أن يندم،

وعمر — ما دام ممتداً — يستطيع أن يغير الاتجاه.

وهذه من أعظم رحمات القرآن: أنه يجعلك تسمع حسرة الآخرة قبل أن تقع، حتى لا

تكون أنت صاحبها.

والذي يرى صاحب الشمال يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ ثم يعود

إلى دنياه ويجعل المال والسلطان أكبر من الله في قلبه، لم تكن أزمته نقص المعلومات، بل

أنه لم يجعل لأذنه وعياً.

أما الأذن الواعية التي ذكرتها السورة قبل ذلك، فإنها تسمع هذه الكلمات فتبدأ فوراً في

إعادة ترتيب الداخل:

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الله أولاً.

ثم كل شيء بعده في مجمه الصحيح.

لأن ما لا يبقى معك يوم الحاقة لا ينبغي أن يصبح إهلك في الأيام الخالية.

الفصل السابع

حين يفسد التعظيم تموت الرحمة

من جحود الله إلى نسيان المسكين

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ فَلَئَسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۚ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ ۚ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾

بعد أن عرضت السورة الكتاب بيده الشمال، وانفجار الحسرة في قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ﴾، وبعد أن أسقطت عنه المال والسلطان، ثم سمعنا أمر الأخذ والغل والجحيم والسلسلة، لا تتركنا السورة أمام العقوبة من غير أن تكشف الجذر الذي أُنبت بها؛ لأن القرآن لا يكتفي بوصف نهاية الإنسان، بل يريد أن يعيدنا إلى النقطة الأولى التي بدأ منها الانحراف، إلى الخلل الخفي الذي كان ينمو في القلب قبل أن يتحول إلى طريق، ثم إلى مصير.

وهنا تأتي الجملة التي تفسر ما سبق كله:

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إنها ليست جريمة عارضة بجوار جرائم أخرى، بل خلل في مركز الوجود كله. فالإنسان حين لا يؤمن بالله العظيم لا يعيش قلبه فراغاً محايِداً؛ القلب لا يحتمل الفراغ من التعظيم، فإذا لم يعظم الله عظم شيئاً غيره، وإن لم يسمه إلهاً بلسانه. قد يعظم نفسه، أو المال، أو السلطان، أو الجماعة، أو الشهرة، أو اللذة، أو الخوف من الناس، حتى يصير ذلك الشيء هو الذي يحدد قراراته ويمنحه شعوره بالقيمة والأمان.

ومن هنا نفهم لماذا سبق في هذا المشهد قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾؛ فالمال والسلطان لم يكونا مجرد ممتلكات ضاعت، بل كانا ربما من الأشياء التي أخذت في قلبه حجماً لا يليق إلا بالله. وحين جاء يوم الحقيقة أعادتهما الحاققة إلى حقيقتهما: مالٌ لا يغني، وسلطانٌ يهلك.

إن كل فساد في ميزان الحياة يبدأ من فساد في حجم الأشياء داخل القلب. حين يكون الله هو العظيم حقاً، يصبح المال صغيراً أمام أمره، والمنصب صغيراً أمام رضاه، ونظرات الناس صغيرة أمام علمه، والخسارة العاجلة صغيرة أمام خسارة الآخرة. أما إذا صغر تعظيم الله في القلب، تضخمت المخلوقات، حتى يصير الإنسان قادراً على أن يخسر دينه خوفاً على راتب، أو يكسر إنساناً ليحفظ منصباً، أو يبيع الحق لكي لا تهتز صورته في أعين الخلق.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةُ

ولذلك لم يقل السياق: إنه كان لا يعرف الله، بل قال: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾. والإيمان هنا ليس لفظاً محفوظاً، بل حقيقة يظهر أثرها في ترتيب الوجود كله. قد يذكر اللسان اسم الله، بينما تكشف المواقف أن القلب يخاف غيره أكثر، ويرجو غيره أكثر، ويتنازل لأجل غيره عما لا يتنازل لأجل الله. عندها تكون المشكلة أعمق من نقص معلومة؛ إنها ضعف في مقام التعظيم.

ووصف الله هنا بـ ﴿الْعَظِيمِ﴾ ليس وصفاً عابراً، بل مفتاح بنائي للسورة كلها. فالذي أهلكه أنه لم يؤمن بالله العظيم، وستتهي السورة بعد قليل بالأمر: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. كأن أول الخلل وآخر العلاج يلتقيان عند كلمة واحدة: العظيم.

إذا عرفت من العظيم، استقام فيك ما سواه.

وإذا أخطأت في العظيم، اختلت أجام العالم كله في قلبك.

إن التوحيد ليس أن تقول فقط إن الله واحد، بل أن لا تمنح شيئاً من خلقه في داخلك مقاماً ينازع مقامه. قد لا يسجد الإنسان لصنم من حجر، لكنه يستطيع أن يسجد معنوياً لصورته الاجتماعية، أو لمصلحته، أو لرغبة شخص يخشى فقده، فيقدم مرضاته على الحق وهو لا يشعر أن شيئاً من العبودية قد تسلل إلى قلبه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لهذا كان تعظيم الله قوة تحرير؛ كلها كبر الله في قلبك صغر ما عداه، لا لأن المخلوقات تنعدم قيمتها، بل لأنها تعود إلى موضعها الصحيح. تحب الناس دون أن تعبد رضاهم، وتملك المال دون أن تعبد أمنه، وتتولى المسؤولية دون أن تعبد كرسيا، وتأخذ بالأسباب دون أن تؤله الأسباب.

ثم تفاجئنا السورة بأن تضع إلى جوار هذه القضية الكبرى قضية تبدو في أعين كثير من الناس اجتماعية صغيرة:

﴿وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾.

وهنا تتجلى عظمة الميزان القرآني.

بين عدم الإيمان بالله العظيم وبين عدم الحض على طعام المسكين علاقة لا يراها العقل الغافل لأول وهلة، لكن القرآن يضعهما متجاورين ليقول إن الخلل في السماء لا بد أن يظهر أثره في الأرض، وإن فساد العلاقة بالله يترك بصمته في علاقة الإنسان بأضعف خلقه.

لم يقل فقط: لم يكن يطعم المسكين، بل قال: ﴿لَا يَخْضُ﴾؛ لا يبحث، ولا يدفع، ولا يوقظ في المجتمع معنى إطعام الضعيف. وقد يكون الإنسان عاجزاً بنفسه عن إشباع كل جائع،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لكن قلبه يستطيع أن يكون حياً بقضية الجوع، ولسانه قادراً على أن يذكر، وموقعه قادراً على أن يحفز، ووجوده قادراً على أن يكون جزءاً من بيئة ترى المسكين ولا تمر عليه كأنه تفصيل زائد في الحياة.

وهذا أوسع من الصدقة الفردية؛ إنه سؤال عن ضمير المجتمع. هل الجائع في وعي الناس مشكلة ينبغي أن تؤلمهم، أم مجرد إنسان سيئ الحظ لا علاقة لهم به؟ هل الفقر خبر عابر في طرف المدينة، أم امتحان أخلاقي لمن وسَّع الله عليهم؟

القرآن لا يفصل بين العقيدة والرحمة؛ لأن الله العظيم الذي تعبده هو رب المسكين أيضاً، والمال الذي في يدك من رزقه، والقدرة التي منحتك فائضاً لم يمنحها لك لتعزل بها عن آلام الآخرين. وإذا لم يترك الإيمان بالله أثراً في طريقة رؤيتك للضعيف، فقد بقي من الإيمان فيك شيء يحتاج أن يبلغ أعظم من اللسان.

ولعل من ألطف دلالات الآية أنها لم تقل: ولا يطعم المسكين، بل ﴿طَعَامَ الْمُسْكِينِ﴾، وكأن في التعبير إشارة إلى أن للطعام جهة استحقاق أخلاقي، وأن ما في يد الغني ليس كله قصة خاصة منفصلة عن حاجة المجتمع. ليس المسكين متطفلاً على العالم، بل إن الله جعل في وجوده امتحاناً لرحمة من حوله.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

والمسكين هنا هو الإنسان الذي كسرتة الحاجة حتى سكنت حركته، أو أضعفه الفقر، وهو صورة لكل من أصبح هشاً أمام ضرورات الحياة. والقرآن يريد من المؤمن أن لا يكون قلبه صلباً تجاه من كسرتة الدنيا؛ فمن تعظيم الله أن تعرف أن العظيم سبحانه يرى الضعيف الذي لا يراه المتكبرون.

كم من إنسان يحرص على مظاهر التدين ثم يضيق بجائع يطرق بابه، أو يزدري فقيراً لأنه لا يملك، أو يحترم صاحب المال أكثر من صاحب الحاجة؛ وهذه الآية تهدم هذا الانفصال. فالمسكين ليس هامشاً في أخلاق الإيمان، بل قد يكون حضوره كاشفاً لصدق ما في القلب.

فالإنسان الذي يطيل الوقوف بين يدي الله، ثم لا يرى أثر ذلك الوقوف في رحمته بمن أضعفهم الفقر، يحتاج أن يسأل نفسه: أي معنى من معاني العبادة لم يصل بعد إلى السلوك؟

إن القرآن لا يريد صلاةً تعزل صاحبها عن العالم، بل صلاةً تعيد ترتيب نظره إلى العالم.

ولا يريد إيماناً يرفع صاحبه فوق الناس، بل إيماناً يجعله أرق قلباً بمن تحت أقدام القوة.

ولهذا كان وضع ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ بجوار ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ شديد

الدلالة: هناك طريق مباشر من تعظيم الخالق إلى رحمة المخلوق.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

فإذا رأيت الإنسان يعظم الله حقاً، ينبغي أن ترى في شيء من حياته تواضعاً ورحمة وعدلاً وشفقة، لأن من عرف عظمة الله عرف أيضاً صغر نفسه، ومن عرف فقره إلى الله لم يحتقر فقيراً إلى الطعام.

أما القلب الذي امتلأ بنفسه حتى لم يعد يرى غيره، فإن أول ضحاياه هم الضعفاء؛ لأن القوي يستطيع أن يفرض حضوره، أما المسكين فلا يملك إلا حاجته، ولا ينتبه إليه إلا قلب تعلم أن ينظر بعين الرحمة لا بعين المصلحة.

ثم تنقلب الصورة في الآخرة على نحو مؤلم:

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾.

كان لا يحض على طعام المسكين، ثم يجد نفسه يوم القيامة بلا حميم؛ بلا قريب مشفق يلتصق به في الشدة ويحمل عنه شيئاً. وفي هذا الجزاء تناسب داخلي عجيب؛ من عاش في الدنيا بارداً تجاه آلام الآخرين يصل إلى يوم يحتاج فيه إلى دفء القرب فلا يجده.

كم من العلاقات في الدنيا تقوم على المال والسلطان والمنفعة، وتبدو لأصحابها شديدة المتانة، لكن الحاقة تختبر نوع الرابط الحقيقي. أين الأتباع الذين كانوا يحيطون به؟ أين من كان

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

يحرص صورته؟ أين من كانوا يجاملونه خوفاً أو طمعاً؟ انفضّ كل ذلك، لأن العلاقات التي تأسست على القوة لا تستطيع تجاوز اليوم الذي تموت فيه القوة نفسها.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾؛ وهنا يحضر معنى الوحدة في أقصى صورها. الإنسان يستطيع أن يتحمل كثيراً من الألم إذا وجد قلباً بجواره، أما أن يجتمع العذاب مع انقطاع المؤانسة فذلك لون آخر من الشدة.

وكان بإمكانه في الدنيا أن يصنع من الرحمة روابط تمتد آثارها، أن يطعم ويواسي ويصل ويحنو، لكن القلب الذي عاش مكتفياً بنفسه يكتشف هناك كم كان محتاجاً إلى المعنى الذي احتقره.

ثم يقول:

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾.

تنقل السورة من المسكين الذي لم يحض على طعامه إلى طعام في الآخرة لا يحمل معنى الكرامة ولا النعيم. والغسلين مما أخبر الله به من طعام أهل العذاب، فتؤمن به كما جاء، من غير تكلف في تصوير ما وراء النص. والمراد أن الطعام الذي كان يمكن في الدنيا أن يكون باب رحمة وإنسانية صار في الآخرة جزءاً من العقوبة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وهنا يظهر التناقض المخيف في السورة: الطعام الذي أهمل معناه الأخلاقي في الدنيا يعود في موضع العذاب. الإنسان لا يعيش في كون مفكك، بل أعماله ومعانيها ترتد إليه على هيئة مصير يناسبها.

كان الطعام في يده نعمةً يمكن أن تصنع له رحمة، فلم ير فيه إلا حاجته الخاصة. وكان المسكين أمامه سؤالاً أخلاقياً، فمر عليه.

ثم يأتي اليوم الذي يصبح فيه هو محتاجاً إلى الطعام، فلا يجد إلا ما يناسب ذلك المصير. وهذا لا يعني أن كل فقير في الدنيا ناجٍ لمجرد فقره، ولا أن كل غني مدان لمجرد غناه؛ فالميزان أعمق من الملكية. السؤال: ماذا فعل القلب بما أُعطي؟ وكيف رأى النعمة؟ وهل فهم أن الفضل امتحان كما أن الحرمان امتحان؟

وقد يكون الغني أشد عبودية لله بماله، حين يضعه في مواضع الخير، من فقير امتلأ قلبه سخطاً وحسداً؛ فالقضية ليست طبقة اجتماعية، بل حقيقة إيمان تظهر في السلوك.

ثم يختم هذا المقطع بقوله:

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وتعود كلمة الخاطئون بعد أن مرّت السورة من قبل على ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾، وكأنها تربط الفرد بتاريخ كامل من الانحراف؛ فالخطأ حين يصير طريقاً ويُصر عليه صاحبه يتحول من عثرة إلى هوية سلوكية.

والقرآن شديد الدقة في التفريق بين الخاطئ والتائب من الخطأ؛ فالإسلام لا يغلق على الإنسان باب النجاة بسبب ماضٍ سيئ، بل يجعل من التوبة انقلاًباً حقيقياً في المصير. الذي يقرأ هذه الآيات وهو حي ليس محكوماً عليه أن يكون من الخاطئين؛ بل إن سماع الوعيد في زمن الاختيار دعوة إلى أن يخرج من الطريق قبل النهاية.

وهذا من أعظم أسرار الوعيد القرآني: أنه رحمة في صورة إنذار.

ما دام القرآن يقول لك الآن: هكذا تكون النهاية، فالنهاية لم تقع عليك بعد.

وما دام قلبك قادراً أن يخاف، فقد بقي فيه ما يستطيع أن يرجع.

وما دام المسكين لا يزال أمامك، تستطيع أن تغير علاقتك به.

وما دام المال في يدك، تستطيع أن تحوله من حجة عليك إلى شاهد لك.

وما دام الله عندك اسماً تعرفه، تستطيع أن تنتقل من معرفة الاسم إلى مقام التعظيم.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

إن الذي يقرأ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ينبغي أن يسأل نفسه سؤالاً أعمق من: هل

أنا مؤمن؟ ينبغي أن يسأل: ما مقدار حضور عظمة الله في قراراتي؟

حين نتعارض مصلحتي مع الحق، من الأكبر في قلبي؟

حين يمدحني الناس في باطل، هل رضاهم أكبر؟

حين يهددني صاحب سلطة، هل ينسيني الله؟

حين أملك مالا، هل أشعر أنه يمنحني استقلالاً عن ربي؟

حين أرى مسكيناً، هل أرى فيه إنساناً يمتحن الله به قلبي؟

هذه الأسئلة هي التي تنقل الآية من وصف أهل النار إلى ميزان يفتش القلب قبل فوات الأوان.

والمدهش أن السورة لا تجعل ضد الكفر مجرد فكرة عقلية، بل تعطيه صورة عملية: تعظيم الله ورحمة المسكين. فكلما ازداد الإيمان صدقاً، بدأ الإنسان يرى النعمة أمانة لا امتيازاً، ويرى الضعف فرصة للرحمة لا مناسبة للاحتقار.

وإذا فسد التعظيم ماتت الرحمة.

فالذي يعظم نفسه يحتقر المحتاج.

والذي يعظم المال يحتقر من لا يملكه.

والذي يعظم السلطة يحتقر من لا سند له.

أما الذي يعظم الله، فإن عظمة الله تكسر فيه أصنام التفوق؛ يعلم أن الفقير والغني كلاهما عبد، وأن ما في يده اليوم قد ينتقل غداً، وأنه لو حُجِبَ عنه فضل الله لحظةً لكان أفقر إلى الله من كل فقير يراه.

وهذا هو الطريق القرآني لصناعة الرحمة: لا يقول لك فقط «كن طيباً»، بل يدركك بمن أنت أمام الله. فإذا رأيت فقرك إلى الله، رق قلبك لفقر الناس.

ولذلك فإن أجمل إطعام للمسكين ليس الذي يخرج من يد متفضلة ترى نفسها أعلى منه، بل الذي يخرج من قلب يقول: هذا فضل الله وصل إليّ أولاً، وأنا لست إلا موضع عبور لجزء منه إلى عبد آخر.

عندها لا يعود العطاء صناعة صورة، بل عبودية.

ولا يصبح الفقير مناسبة لإظهار الكرم، بل إنساناً له كرامته، وشريكاً في امتحانك أمام الله.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وما أبعد هذه الروح عن صاحب الشمال الذي لم يكن يحض؛ لم يكتف بقلة الفعل، بل كان ضميره الاجتماعي نفسه بارداً.

إن القرآن يريد من المؤمن أن يكون منتجاً للرحمة حوله، لا مجرد ممارس لخير فردي في حدود نفسه. أن يحض، وأن يوقظ، وأن يذكر، وأن يصنع ثقافة لا يرى فيها المجتمع الجوع أمراً عادياً.

فالمجتمع الذي يأكل فيه القادرون مطمئنين بينما يتضور الضعفاء، ثم لا يشعر الضمير العام بخلل، قد فقد شيئاً من حسه الإيماني، مهما كثرت فيه الشعارات.

وفي نهاية هذا المقطع يصبح واضحاً أن الحاقّة ليست فقط سورة عن انفجار الكون يوم القيامة، بل عن انفجار المعايير الكاذبة. هناك نعرف أن الإنسان الذي حسب نفسه عظيماً لم يكن عظيماً، وأن المال الذي حسبته نجاة لم يكن نجاة، وأن المسكين الذي لم يره جديراً بالاهتمام كان جزءاً من الامتحان العظيم، وأن الطعام الذي بدا تفصيلاً يومياً كان قادراً أن يكون باب جنة أو شاهد قسوة.

فالقيامة تكشف أن الأشياء الصغيرة في الدنيا لم تكن صغيرة.

لقمة.

رحمة.

كلمة حضّ.

نظرة احترام لفقير.

رفض استعلاء.

هذه كلها قد تحمل في ميزان الله معنى أكبر من أشياء تصنع ضجيحاً هائلاً بين الناس.

والسورة، وهي تسيّر بنا نحو الحديث عن القرآن نفسه، تكون قد خلعت عن القلب أوهامه

واحداً بعد آخر: وهم القوة، وهم المال، وهم السلطان، وهم أن الإيمان قضية منفصلة

عن الرحمة.

ثم ستفتح بعد ذلك دائرة أوسع، فتقسم بما نرى وما لا نرى، لتضعنا أمام السؤال الأعظم:

من أين جاء هذا الخبر كله؟

وهناك يبدأ القرآن في الشهادة لنفسه.

الفصل الثامن

مَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ

حين يشهد الوجود لصدق الوحي

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۖ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۖ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ۖ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

بعد أن طافت السورة بالقلب بين خرائب الأمم، ثم حملته إلى يوم تُدك فيه الأرض وتشتقق السماء، ثم أوقفته أمام الكتاب واليمين والشمال، وأسمعته اعتراف المال بعجزه والسلطان بهلاكه، وكشفت له أن قسوة القلب على المسكين ليست تفصيلاً بعيداً عن الإيمان، تعود الآن إلى السؤال الذي تقوم عليه الرحلة كلها: من أين جاء هذا الخبر؟ من الذي أخبر الإنسان بما لم يشهده بعد؟ ومن الذي كشف له الصفحة الأخيرة من الوجود وهو لا يزال يعيش في الصفحة الأولى؟ إن كل ما سبق من الحاقة والغيب والحساب والجنة والنار قائم في وعي المؤمن على حقيقة الوحي؛ فإذا لم يُحسم مصدر القرآن بقيت مشاهد الآخرة عند المكذب قابلة لأن يلقي عليها أسماء البشر القديمة: شعر، كهانة، خيال، أو صناعة عقل

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

متميز. ولذلك تنتقل السورة من الحديث عن المصير إلى الحديث عن الكتاب الذي أخبر بالمصير، وكأنها تقول: لقد رأيت ما يقوله القرآن عن النهاية، فاسأل الآن عن الصوت الذي جاءك بهذا كله.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ﴾.

يفتح القسم أمام الإنسان دائرتين تستوعبان الوجود كله تقريباً: ما تراه، وما لا تراه. وبذلك يخرج القرآن بالعقل من ضيق النافذة التي يعيش خلفها؛ فالإنسان مفطور على أن يمنح المرئي قوة خاصة في نفسه، حتى تكاد العين تتحول عند بعض الناس إلى حَكَمٍ على الوجود كله: ما رأيته فهو حقيقة، وما لم أره فأمره مشكوك فيه. لكن القرآن يكسر هذا الاستبداد الحسي بكلمتين؛ ما تبصرون وما لا تبصرون. ليس العالم محصوراً فيما تبلغ إليه عينك، ولا حدود المعرفة هي حدود بصرك، ولا الغيب عدماً لأنه غاب عن حاسة خلقت أصلاً بمدى محدود.

وما أشد حاجة الإنسان إلى هذا التصحيح؛ فنحن نعيش أصلاً محاطين بأشياء لا نبصر حقائقها مباشرة، ونستدل عليها بآثارها، ونقبل بوجودها لأن الدليل يقود إليها، ثم قد يأتي الإنسان إلى الغيب الذي أخبر به الصادق سبحانه، فيطلب منه أن يدخل تحت العين قبل

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

أن يصدقته. وكأن الحاسة المحدودة التي لا ترى ما وراء جدار، ولا ترى ما يجري في قلب أقرب الناس إليها، تريد أن تصبح معياراً لما يجوز أن يوجد في ملك الله كله.

إن القرآن لا يهين الحواس؛ بل يضعها في مكانها. العين آية عظيمة، لكنها ليست إلهماً للمعرفة. ترى لون الشيء ولا ترى بالعين وحدها حقيقته الأخيرة، وترى الجسد ولا ترى الروح، وترى العمل ولا ترى النية، وترى السماء ولا تحيط بما فيها من خلق الله، وترى اللحظة ولا ترى ما ينتظرها في الغد. ولذلك فإن أكثر حياة الإنسان تجري أصلاً بين ظاهر يراه وباطن لا يراه.

﴿بِمَا تَبْصُرُونَ﴾ وَمَا لَا تَبْصُرُونَ﴾؛ كأن الآيتين تعيدان بناء عقل المؤمن على اتساع مهيب: الوجود أكبر منك، وأكبر من أدواتك، وأكبر من تصوراتك. وما كشفه الله لك من الغيب ليس اقتحاماً للعقل، بل توسيعاً له إلى ما لا تستطيع الحواس بلوغه بمفردها.

بل إن سورة الحاقة نفسها كانت منذ أولها تدريجاً على هذا النوع من الرؤية؛ حدثك عن يوم لم تره، وعن كتب لم تستلمها بعد، وعن جنة ونار، ثم قدّمت لك من التاريخ ما رأى البشر آثاره، فكانها تجمع بين الشهادة والغيب في نسيج واحد. ما رأيته من سقوط الأمم يصبح

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

شاهداً على إمكان ما لم تره بعد من سقوط العالم، وما عرفته من صدق الوحي في أبواب كثيرة يفتح لك باب الثقة بخبره فيما وراء الحس.

ولذلك فإن المؤمن لا يعيش بعين واحدة؛ له عين تنظر في الكون، وقلب يتلقى خبر الله. لا يعطل الأولى باسم الثانية، ولا يغلق الثانية باسم الأولى. ينظر في الأسباب، ويدرس الواقع، ويستعمل العقل، ثم يعرف أن وراء حدود ذلك كله علماً لا يبلغه إلا الوحي.

والقسم بما نبصر وما لا نبصر يحمل معنى آخر شديد الجمال: أن الله يستشهد بالوجود كله، ظاهره وخفيه، على صدق الكتاب الذي أنزله. فالقرآن لا يقف غريباً عن الكون، بل يأتي من رب الكون نفسه؛ والذي خلق العين وما تراه، وخلق الغيب الذي لا تراه، هو الذي تكلم بهذا الوحي. ومن هنا لا توجد خصومة أصيلة بين كتاب الله المنظور في الخلق وكتابه المتلو في الوحي؛ إنما يقع الاضطراب في نظر الإنسان حين يسيء قراءة أحدهما أو كليهما.

ثم تأتي الجملة الحاسمة:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

والمراد أنه قول بلغه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن ربه، لا أنه أنشأه من عند نفسه؛ فالآيات ستقرر بعد قليل بوضوح لا يحتمل التردد: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وإضافة

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

القول إلى الرسول إضافة تبليغ وأداء؛ كما تنسب الرسالة إلى من يحملها ويؤديها بأمانة، مع بقاء مصدرها لمن أرسلها.

ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم هنا بـ الكريم ينسجم مع قضية الوحي من جهة الأمانة والشرف؛ فليس الذي يحمل هذا الخبر رجلاً عرف عنه الكذب والخيانة ثم ادعى فجأة أنه رسول، بل رسول اصطفاه الله، كريم في مقام الرسالة، أمين على ما يوحي إليه، لا يزيد فيه من عند نفسه ولا ينقص منه ما لا يوافق هواه.

وهذه النقطة من أعظم ما ينبغي أن يتأملها القارئ في القرآن: أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ كتاباً فيه ما يرفع مقامه، وفيه كذلك ما يعاتبه، فلم يحذف العتاب ليصنع لنفسه صورةً بشرية أكثر راحة. ولو كان الكتاب مشروع شخص لصاحبه، لكنت الغريزة البشرية تميل إلى تحسين الصورة وحذف المواضع التي قد يستغلها الخصم، أما الرسول فقد كان عبداً مبلغاً، شرفه الأعظم أن لا تكون الرسالة ملكه الشخصي ليتصرف فيها، وإنما أمانة من الله.

وهكذا يصبح صدق الرسول جزءاً من بنية اليقين بالآخرة؛ فأنت لم تر الحاققة، لكن الذي أخبرك بها لم يكن متكهناً في المجهول، ولا شاعراً ينسج الصور، بل رسولاً كريماً يتلقى من رب العالمين.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ثم يبدأ القرآن في إسقاط التفسيرات البشرية التي ألصقها المكذوبون بالوحي:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

لم تكن العرب بحاجة إلى من يشرح لها الشعر؛ كانت تعرفه في لغتها ووزنه ومجاليه، وتعرف حال الشاعر حين يقول، ومع ذلك حاول المكذب أن يضع القرآن في هذا الصندوق الجاهز، لا لأن القرآن يشبه الشعر حقيقةً، بل لأن العقل الذي يرفض المصدر الإلهي يبحث عن تسمية بشرية بديلة تريخه من لوازم الإيمان.

فالإنسان حين يعجز عن إبطال الحقيقة قد يحاول تخفيف قوتها بتغيير اسمها. إذا سميت الوحي شعراً صار في النفس تعبيراً بشرياً يمكن الإعجاب به دون الخضوع له. أما إذا قلت: هذا كلام الله، فإن السؤال يتحول فوراً من الذوق إلى الطاعة، ومن الإعجاب بالبيان إلى المسؤولية أمام المتكلم سبحانه.

وهذا ما يجعل قضية مصدر القرآن قضية وجودية لا أدبية فقط. لو كان شعراً لاستطعت أن تقول: أعجبنى أو لم يعجبني، ثم تمضي. ولو كان رأياً بشرياً لاستطعت أن تضعه بجوار آراء أخرى. أما إذا كان تنزيلاً من رب العالمين، فأنت لا تقف أمام نص ضمن النصوص، بل أمام خطاب من خالقك يحدد لك معنى وجودك ومصيرك.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

ولهذا كانت التهمة نفسها محاولة للهروب من ثقل الحقيقة.

ومع أن القرآن بلغ من الجمال ما يأخذ النفس، فإنه لا يسمح لك أن تحبس جماله في خانة الشعر؛ لأن البلاغة فيه ليست الغاية النهائية، بل وعاء الحقيقة. أنت لا تقرأ السورة لتبهر فقط بتوالي الأصوات في: الحاقة، القارعة، الطاغية، عاتية، خاوية، ثم تغلق الكتاب على متعة فنية، وإنما يُراد لهذا الجمال أن يشق طريقاً إلى القلب حتى تصبح الحاقة موقفاً لا صورة.

فالقرآن أجمل من أن يُحتزل في الجمال.

وأعمق من أن يُحتزل في اللغة.

وأخطر من أن يُستقبل بوصفه أثراً أدبياً معزولاً عن التكليف.

إنه كلام يهدي ويحاکم ويعد وينذر ويعيد تعريف الإنسان لنفسه.

ثم يقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾؛ وكأن المشكلة بعد وضوح الفارق ليست في نقص البيان، بل في ضعف قابلية القلب للإيمان. وهذا من أشد ما ينبغي أن يخشاه الإنسان: أن تكون الحقيقة واضحة، لكن إرادته لا تريد الثمن الذي تتطلبه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

فالإيمان ليس عملية عقلية محضة. كم من إنسان يعرف في داخله أن الأمر حق، لكنه يؤجله لأن الحق سيغال عاداته، أو ماله، أو علاقاته، أو مكانته. قد يكون الدليل قد وصل، لكن النفس لم تُسلم.

وهنا نتكشف صلة عميقة بين أول السورة وآخرها؛ عاد وثمود لم يكن نقصهم في وجود الرسول والإنذار، بل في الاستجابة. وصاحب الشمال لم يكن محكوماً عليه بالغفلة قهراً، بل عاش بطريقة لم يجعل للحساب فيها سلطاناً. والآن تقول السورة عن المكذبين بالقرآن: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾. المشكلة نفسها تكرر: الخبر يصل، لكن القلب يضع بينه وبين الخبر ستاراً من الهوى.

ثم تسقط التهمة الثانية:

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ﴾.

والكهانة في البيئة القديمة ارتبطت بادعاء الاطلاع على الغيب بطرائق باطلة، والكلام الذي يختلط فيه الوهم والتخرص. والقرآن يقطع صلته بهذا العالم قطعاً؛ لأن الفرق بين الوحي والكهانة هو الفرق بين خبر من يعلم الغيب وبين محاولة مخلوق أن يقتحم ما لا يعلم.

الوحي لا يقول: أظن أن وراء الموت شيئاً.

ولا يقول: لعل الحاققة تقع.

ولا يقدم صور القيامة بوصفها احتمالات فلسفية.

إنه يتكلم بيقين لا ينبع من جرأة بشر على المجهول، بل من علم الله الذي لا يغيب عنه شيء.

ولهذا كانت محاولة إدخاله في الكهانة محاولة لتسوية العلم الإلهي بالتخوص البشري، وبينهما من البون ما بين النور والظن.

ثم يأتي قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ فتنقل السورة من الإيمان إلى التذكر. وكأن الذين سموا القرآن كهانة لم ينقصهم فقط التصديق، بل لم يعودوا يحسنون وصل الدليل بما يعرفونه أصلاً. كانوا يعرفون الكهان، ويعرفون أساليبهم، ويعرفون سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعرفون أن هذا القرآن لا ينتمي إلى ما عهدوه، لكن الهوى حين يشتد قد يجعل الإنسان ينسى الفروق التي يعرفها.

وهذا معنى متجدد في كل زمن: قد لا يستطيع الإنسان إنكار الحقيقة مباشرة، فيبحث لها عن تصنيف يخفف أثرها. وربما كان الاسم الجديد أكثر تطوراً من «شعر» و«كهانة»، لكن الوظيفة النفسية واحدة: إبعاد الوحي عن مقام الأمر الإلهي إلى مساحة يمكن التعامل معها بلا خضوع.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وقد يحدث هذا حتى لمن يقر بأن القرآن كلام الله بلسانه، حين يتعامل معه في الممارسة كأنه كتاب ثقافة لا كتاب هداية؛ يستمتع باقتباسه، ويبحث عن غرائبه وبلاغته، لكنه إذا جاءت آية تمس هوىً راسخاً في نفسه أبقاها على الورق ولم يسمح لها بالدخول إلى القرار. حينها قد يكون قد نجح في احترام القرآن لفظاً، لكنه لم يعطه مقامه كاملاً في حياته.

والحنّة الحقيقية ليست أن تقول: ما هذا الكتاب؟ بل أن تعرف ما هو ثم تسأل نفسك: هل تركت له أن يكون كتاب الله في سلوكي؟

ثم تأتي الآية التي تحسم الأمر كله:

﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ما أعظم هذه الجملة بعد كل ما سبق.

كلمة ﴿تَنْزِيلٌ﴾ وحدها تنسف التهمتين؛ الشعر يخرج من تجربة الشاعر، والكهانة تخرج من ظنون مدعيها، أما القرآن فينزل. مصدره فوق الإنسان لا في تركيبته النفسية، ووظيفته أن يهدي الإنسان لا أن يعبر عن الإنسان وحده.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

إنه تنزل، أي إن البشرية لم تصعد بعقلها حتى اكتشفت هذا القرآن، بل تنزلت عليها رحمة الله بالخطاب. لم يكن الإنسان يسير في ظلامه ثم صنع لنفسه نوراً، بل جاءه النور من عند من يعلم حقيقة الطريق كله.

وهذه الكلمة تغير علاقة المؤمن بالقرآن جذرياً. إذا كان تنزيلاً، فأنت حين تفتح المصحف لا تفتح أثراً باقياً من ثقافة قديمة، وإنما تستقبل خطاباً أراد الله له أن يبلغك. الفارق الزمني بين نزوله الأول وبين قراءتك اليوم لا يبدل مصدره؛ هو من الله، وأنت عبد من عباده، وما فيه من أمر ونهي ووعد ووعيد لم يفقد صلته بك لأن القرون مرّت.

ثم ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يقل: من رب العرب، ولا من رب جيل بعينه، بل رب العالمين؛ الذي خلق العالمين كلها، وربّ خلقه، وأحاط بهم علماً، ويعلم حاجتهم وطبيعتهم ومآلهم. ومن هنا يأخذ القرآن عالميته من مصدره قبل أن يأخذها من امتداد خطابه؛ فالذي أنزله ليس إله بيئة أو قبيلة، بل رب الوجود كله.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وفي وصفه سبحانه بـ الرب معنى الرعاية والتربية؛ فالقرآن ليس مجرد قانون ألقاه مالك إلى عبيده ثم تركهم، بل تنزيل من الرب الذي يربي الإنسان بالوحي كما يربي جسده بالنعم. الغذاء يصل إلى البدن من رزق الله، والهداية تصل إلى الروح من كلام الله.

وهنا نفهم أن الوحي في ذاته رحمة تربية؛ لأن الإنسان لو ترك لعقله وحده لاستطاع أن يعرف أشياء كثيرة في عالمه، لكنه لن يستطيع أن يخترع لنفسه معرفة يقينية بالحاقة ولا أن يطلع على الغيب ولا أن يعرف تفصيل ما يرضي ربه على وجه العصمة. يحتاج إلى خبر من خارج حدوده، فجاء التنزيل.

ولفظ العالمين يعيدنا كذلك إلى القسم: ﴿بِمَا تَبْصُرُونَ﴾ وَمَا لَا تَبْصُرُونَ. الرب الذي أنزل هو رب المرئي وغير المرئي، رب عالم الشهادة وعالم الغيب، فلا غرابة أن يخبرك عما لا تبصر؛ لأنه ليس غائباً عن علمه.

أنت تقول: لم أر القيامة.

والجواب: لكن الذي أخبرك بها رب القيامة.

تقول: لم أر الملائكة.

لكن الذي أخبرك بهم خلقهم.

تقول: لم أر كذاي.

لكن الذي أخبرك به يعلم ما يكتب فيه.

ومن هنا يكون اليقين بالغيب ليس قفزة في الفراغ، بل ثقةً بالمخبر الذي لا يتطرق إلى علمه جهل ولا إلى خبره كذب.

وهذا هو الفارق بين التسليم للوحي وتعطيل العقل؛ فالأول عقل عرف حدّه وعرف صدق المصدر، والثاني انطفاء للنظر. المؤمن ينظر ويستدل، ثم إذا ثبت له أن هذا كلام الله عرف أن مقتضى العقل نفسه أن يصدق من علمه مطلق ولا يقيس خبره على قصور تجربته.

وكلما استقر معنى ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في القلب تغيرت القراءة. لم تعد الآية فقرة تمر عليها لتجمع منها معلومة، بل خطاباً يصل إليك من ربك. وحين يقول لك: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، لا تكون أمام صورة وعظية من تأليف بشر، بل أمام ربك يخبرك بيوم سيعرضك فيه. وحين يقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾، فأنت تسمع وعداً ممن يملك الجنة. وحين يقول: ﴿خُذُوهُ فَعُلُوهُ﴾، فأنت أمام إنذار ممن يملك الحكم.

ولهذا فإن قوة القرآن ليست في أن عباراته جميلة فحسب، بل في هوية المتكلم.

إن الجملة الواحدة يتغير وزنها بحسب قائلها؛ فكيف إذا كان المتكلم رب العالمين؟

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

ويمكن للإنسان أن يعرف هذه الحقيقة نظرياً سنوات طويلة، ثم يحتاج إلى أن يستعيدها وجدانياً كلها فتح القرآن: هذا ليس كلاماً عن الله؛ هذا كلام الله. ليس إنساناً يصف لي رب العالمين من بعيد، بل رب العالمين يخاطبني بما شاء أن أعرفه عنه وعن نفسي وعن مصيري.

وهذا الوعي وحده قادر على أن يطرد كثيراً من الفتور في التلقي. ربما يمل الإنسان من كتاب بشري لأنه أحاط بفكرته، لكن لا يحيط المخلوق بكلام الله؛ كلما اتسع وعيه انكشفت له طبقة جديدة من الدلالة، لا لأن النص يتبدل، بل لأن القارئ نفسه يكبر أو يصغر بحسب ما يفتح الله له.

ومن أعظم ما تكشفه سورة الحاقة هنا أن الإيمان بالآخرة مرتبط بالإيمان بالوحي؛ فالإنسان الذي يغلق أبواب المعرفة عند الحس سيعزل عاجزاً عن رؤية ما وراء الموت، أما حين يعرف أن الله وحياً صادقاً يفتح له الأفق الذي لا تستطيع العين وحدها أن تفتحه.

وهذا يصبح القرآن هو الجسر بين الأيام الخالية والحاقة؛ هو الذي يخبرك الآن بما ستراه هناك، حتى تستطيع أن تغير ما ستراه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وهذه هي النعمة التي قد لا يشعر الإنسان بضخامتها: أن يحمل في يده كتاباً يعرف به شيئاً من مستقبله الأبدي.

لو عرف إنسان أن بين يديه وثيقة صادقة تخبره بمصير طريق دنيوي يسلكه، لقلبها عشرات المرات قبل أن يختار. فكيف بكتاب يخبره بمصير الوجود نفسه؟

ومع ذلك قد يكون المصحف قريباً والجسد غافلاً.

الاقتراب المكاني من الوحي لا يعني أن القلب قد تلقاه.

يمكن أن يكون القرآن على الرف، بعيداً عن القرار.

ويمكن أن يكون في الهاتف، بعيداً عن القلب.

ويمكن أن يتلوه اللسان، بينما يعيش الإنسان وفق كتاب آخر كتبه له الهوى أو المجتمع أو الخوف.

ولهذا قالت السورة من قبل: ﴿وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾. ليست المشكلة في وصول الصوت؛ بل في مكان استقراره بعد الوصول.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ

إِنَّ ﴿تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تضع على القارئ مسؤولية تناسب شرف النعمة: إذا كان الذي بين يديك من رب العالمين، فلا يليق أن يكون رأي نفسك مقدماً عليه حين يظهر لك مراده، ولا أن تأخذ منه ما يوافقك وتدفع ما يخالف هواك، ولا أن تطلب منه دائماً أن يبرر لك ما اخترته مسبقاً. الاستسلام للقرآن ليس أن تجعله تابعاً لرغباتك، بل أن تجعل نفسك قابلة لأن يصححها.

وهنا يصبح السؤال الذي يواجه به هذا الفصل كل قارئ سؤالاً لا مفر منه:

حين أقرأ القرآن، من أظن أنني أسمع؟

إن ظننته تراثاً لغوياً، ستقرأه بعين الناقد فقط.

وإن ظننته كتاب حكمة، ستأخذ منه ما يعجبك.

أما إن استقر فيك أنه تنزيل من رب العالمين، فستنضم إلى القراءة هيئة أخرى: خشية، وإنصات، واستعداد لأن تتغير.

ومن هنا تفهم لماذا تبدأ الآيات بالقسم بما ترى وما لا ترى، وتنتهي برب العالمين؛ إنها تنقل الإنسان من حد عينه إلى سعة ملك الله، ثم تضع القرآن في موضعه الحقيقي بين

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الاثنين: وحيٌ من رب المرئي والغيب معاً، جاء ليخبر الإنسان بما لم يكن ليستطيع معرفته وحده، وليأخذه من ضيق الحس إلى سعة اليقين.

وقد بقي في السورة سؤال بالغ الخطورة: إذا كان القرآن من رب العالمين، فهل يملك الرسول نفسه أن يزيد فيه من عنده كلمة؟

ستجيب الآيات التالية بجواب من أشد أجوبة القرآن حسماً، حتى يكتمل معنى الأمانة، ويظهر أن الوحي ليس مجالاً يملك أحد - ولو كان الرسول المبلِّغ - أن يتصرف فيه من تلقاء نفسه.

الفصل التاسع

أمانة الوحي

حين لا يملك المبلِّغ أن يزيد حرفاً من عنده

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ﴾

بعد أن حسمت السورة مصدر القرآن بقولها: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لم تترك في الطريق شبهةً يمكن أن تتسلل من باب آخر، فقد يقول قائل: إذا كان أصل الرسالة من عند الله، فهل يمكن للمبلِّغ أن يضيف إليها من عند نفسه، أو أن يخلط الوحي برأيه، أو أن يصوغ شيئاً ثم ينسبه إلى الله؟ وهنا تأتي هذه الآيات بقوة تكاد تقطع الاحتمال من جذره، لا لأنها تتحدث عن وقوع شيء من ذلك — وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم — بل لأنها تقيم برهان الأمانة على صورة شرطٍ مستحيل الوقوع من الرسول الأمين، لتبين أن الوحي في حراسة الله، وأن المبلِّغ نفسه لا يملك أمام مصدر الرسالة أن يتصرف فيها كما يتصرف صاحب كتاب في كتابه.

التَقَوَّلَ ليس مجرد الكلام، بل اختلاق القول ونسبته إلى من لم يقله. والآية تضع الفرض في أقصى صورة ممكنة: لو نسب الرسول إلى الله شيئاً لم ينزله الله، ولو كان بعض الأقاويل لا كلها، لما تَرَكَ الأمر يمر، لأن المسألة ليست اجتهداً في مساحة بشرية، بل نسبة كلام إلى رب العالمين. ومن هنا نفهم أن قداسة الوحي لا تقبل الزيادة كما لا تقبل النقص؛ فالكلمة التي تُنسب إلى الله ليست كالكلمة التي تُنسب إلى بشر، لأن الإنسان الذي يسمعها سيتعبد بها، ويقيم عليها تصوره للحلال والحرام، وللهداية والضلال، وللبصير.

ولهذا فإن أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم تظهر هنا في أعلى صورها: لم تكن أمانته أنه نقل المعاني العامة فحسب، بل أنه بلغ ما أُوحي إليه كما أمر، لا يملك أن يجعل من نفسه شريكاً في صناعة الوحي. مقام النبوة نفسه لا يرفعه فوق مقام العبودية، بل يزيد عبوديته ظهوراً؛ فالرسول أشرف الخلق لأنه أصدقهم قياماً بما أمره الله، لا لأنه خرج عن حد المخلوقية أو صار له في كلام الله حق تصرف مستقل.

وهنا يكشف القرآن عن تصور شديد النقاء للنبوة: النبي لا ينازع الله مقام التشريع من عند نفسه، ولا يرفع ذاته لتكون مصدرراً موازياً للوحي، بل كل عظمته في أنه رسول؛ يحمل

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

الأمانة ولا يملكها، يبلغها ولا يصنعها، يطيعها قبل أن يدعو الناس إلى طاعتها. وهذه منزلة شرف لا نقص؛ لأن أعظم كمال العبد أن يكون عبداً لله على الحقيقة.

وفي قوله: ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ دقة لافتة؛ لم يقل: لو بدّل القرآن كله، فهذا أمر يستبعده العقل أصلاً من الرسول الذي عاش بالوحي، بل جاء بأدنى صورة من الافتراض: بعض الأقاويل. وكأن السورة تقول إن حرمة النسبة إلى الله لا تحتل حتى نسبة جزء مخترع، مهما بدا صغيراً؛ لأن الصدق مع الله لا يُجزأ.

وهذا المعنى يربّي المؤمن كذلك على مهابة الكلام في الدين؛ فإذا كان الرسول المبلّغ لا يملك أن ينسب إلى الله ما لم يوح إليه، فكيف يهون على إنسان أن يقول عن الله أو عن شرعه بغير علم؟ كم من عبارة تبدأ بـ«الله يريد» أو «الدين يقول» بينما المتكلم لم يتحقق مما ينسب، وإنما عبر عن ذوقه أو عادته أو غضبه ثم ألبسه ثوب الوحي. إن من تعظيم الله أن نفرق بين ما قاله الله وما فهمناه نحن، وبين النص المعصوم واجتهاد البشر حوله.

ثم يأتي الجواب على الفرض:

﴿لَا خَدَنًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

لفظ الأخذ الذي مرّ معنا في تاريخ المكذّبين يعود هنا من جديد، لكنه هذه المرة في مقام تقرير سلطان الله على الرسول نفسه لو فرض أن يقع منه ما حاشاه الله منه. وهذا شديد الدلالة؛ فالرسول مع كرامته عند ربه عبد لا يخرج عن سلطان الله، ولا يستطيع أحد أن يضع مقام المحبة للنبي فوق مقام الربوبية لله. بل كمال محبته صلى الله عليه وسلم أن نراه كما أراد الله له أن يكون: عبداً ورسولاً، مكرماً بالوحي، محفوظاً في البلاغ، قائماً بأمانته.

واليمين في هذا السياق تحمل معنى القوة والتمكن؛ أي لأخذناه أخذاً لا يستطيع دفعه. وليس المقصود أن تدخل النفس في كيفيات الغيب، بل أن تستقبل المعنى الحاسم: لو وقع التقول لما استطاع صاحبه أن يحتمي من الله بشرف مقام، ولا بحجة أتباع، ولا بقوة بشرية.

وهذا من أعظم ما يهدم عبادة الأشخاص؛ فالدين الذي يقرر في أوضح ألفاظه أن الرسول نفسه تحت سلطان الله لا يسمح أن يتحول عالم أو داعية أو شيخ أو قائد إلى مصدر معصوم لا يُراجع. كل أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبل من قوله ويُرد بحسب موافقته للحق، ولا يرتفع أحد فوق النص الذي جاء به الرسول نفسه.

ثم يقول سبحانه:

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الوتين عِرْق متصل بالقلب، وقطعه هلاك. والصورة هنا في غاية الشدة؛ لأنها تريد أن تبلغ بالقلب إلى اليقين بأن الله لا يترك وحيه نهياً للتصرف، وأن من يبلغه لا يملك أن يضع فيه من ذاته شيئاً ثم يستمر وكأن شيئاً لم يقع. إن حماية الوحي ليست أمانة بشرية وحدها، بل وراءها حفظ إلهي.

وهذا يفتح باباً عظيماً في الثقة بالقرآن: الكتاب الذي بين أيدينا لم يصل إلينا بوصفه أثراً ترك ليعبث به ناقله الأول، بل نزل من رب العالمين على رسول يعلم أنه لو نسب إلى الله ما لم يقله لم يكن في الوجود من يحجز عنه قضاء الله. إنها ليست بيثة تسمح للكذب على الله ثم تترك الكاذب قائداً للوحي؛ بل بنية دينية كاملة تجعل الكلمة الإلهية فوق المبلّغ نفسه.

ومن أجمل ما في هذه الآيات أنها لا تنتقص مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تزيده شرفاً؛ إذ تكشف مقدار الأمانة التي حملها، ومقدار الصدق الذي عاش به. فالذي بلغ للناس آيات الثناء عليه هو نفسه الذي بلغ لهم آيات العتاب، وما أخفى شيئاً يصعب على النفس البشرية سماعه، وما جعل الدعوة مشروعاً لتلبيع ذاته. وهذا من دلائل صدقه؛ لأن صاحب المشروع الشخصي عادةً ينتقي من كلامه ما يبيّن صورته، أما النبي فكان مبلّغاً عن الله حتى حين يكون الوحي مشتملاً على ما يؤذيه أو يوجهه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لقد كان يستطيع — لو كان القرآن من عند نفسه — أن يصوغ صورةً لا يأتيها عتاب ولا يرد فيها تصويب، لكن الوحي احتفظ لنا بالمواقف كما أرادها الله، حتى يبقى الفرق واضحاً بين الرب الذي يوجه والعبد الذي يطيع.

وهنا يبلغ مفهوم العبودية النبوية أوج جماله: إن كمال محمد صلى الله عليه وسلم ليس في أنه لا يحتاج إلى توجيه ربه، بل في أنه أكمل الخلق استجابةً لتوجيه ربه. وهذه منزلة لا تنقص المحبة، بل تنقيها من الغلو؛ فنحب الرسول لأنه دلنا على الله، لا لأننا نضعه في مقام لا يرضاه لنفسه.

ثم تأتي خاتمة المقطع:

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

يا لها من جملة تهدم كل أوهم القوة البشرية دفعة واحدة.

من أحد: لا فرد، ولا جماعة، ولا قبيلة، ولا جيش، ولا محب، ولا صاحب مكانة؛ لا أحد يستطيع أن يقف حاجزاً بين حكم الله ونفاذه إذا قضى شيئاً. وهذه الحقيقة تربط هذا المقطع بالسورة كلها من أولها: لم يكن لعاد حاجز من الريح، ولا ثمود حاجز من الطاغية، ولا لفرعون حاجز من الأخذة، ولا للسماء حاجز من الانشقاق، ولا للأرض حاجز من

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الدك، ولا لصاحب الشمال حاجز من الحساب؛ فكيف يظن الإنسان أن بشراً يستطيع أن يصنع لنفسه أو لغيره منطقةً خارج سلطان الله؟

إن السورة كلها في عمقها تكسير للحواجز الوهمية التي يصنعها الإنسان بينه وبين الحقيقة.

قوة عاد بدت حاجزاً.

جبال ثمود بدت حاجزاً.

سلطان فرعون بدا حاجزاً.

المال بدا حاجزاً.

التفوذ بدا حاجزاً.

ثم جاء القرآن يمر على كل واحد منها ويقول بطريقته: لا حاجز.

وهنا تقول الآية صراحة: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

ومن فهم هذا استقامت فيه عبودية الخوف والرجاء. لا يطلب من البشر ما لا يملكون، ولا يخافهم خوفاً يخرجهم من طاعة الله، ولا يعلّق نجاته بخلق مهما علا قدره؛ لأن المخلوق نفسه داخل سلطان الخالق.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وقد تبدو هذه الحقيقة مخيفة إذا قرئت من جهة العقوبة وحدها، لكنها من جهة أخرى مصدر حرية عظيمة للمؤمن. إذا كان لا أحد يستطيع أن يحجز عنك قضاء الله، فلا تجعل رضا أحد سبباً لمعصيته. وإذا كان البشر جميعاً لا يملكون لك شيئاً خارج إرادة الله، فلماذا تبيع ضميرك لتدخل في قلوبهم؟ ولماذا تحني رأسك للباطل خوفاً من سلطة ستنتهي؟ ولماذا تجعل إنساناً واحداً قادراً في وعيك على أن يقرر قيمتك ومصيرك؟

إن التوحيد يخرج القلب من السجن البشري؛ لا يعني أن يهمل الناس أو يتكبر عليهم، بل أن يحبهم ويحترمهم من غير أن يمنحهم مقاماً لا يملكونه.

وأشد صور هذا السجن أن يصير الإنسان أسيراً لصورة شخص في داخله؛ يخشى غضبه أكثر من غضب الله، أو يطلب رضاه ولو خسر الحق، أو يتلقى منه الدين بلا نظر لأنه يراه فوق الخطأ. فتأتي هذه الآيات لتقول: حتى الرسول المبلغ لو فرض منه التقول لما كان أحد يحجز عنه حكم الله؛ فكيف بمن دونه؟

وهذا يضع قاعدة معرفية بالغة الأهمية: الشخص يُعرف بالحق، ولا يُعرف الحق بالشخص وحده. رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة لأنه رسول من عند الله، وما بلغه وحي يجب اتباعه، أما من بعده فلا عصمة لأحد، ويظل النص هو المرجع الذي تعود إليه الأقوال.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وفي هذا المعنى حماية للدين من أن يتحول إلى شبكة ولاءات بشرية؛ لأن القرآن يريد أن يصعد بك دائماً من الأشخاص إلى رب الأشخاص، ومن الوسائط إلى مصدر الهداية. تحب العالم، لكن لا تعبدّه. توقّر الصالح، لكن لا تعصمه. تنتفع بالمفسر، لكن لا تجعل فهمه قرآناً آخر. وتحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم حب يليق بمقامه، وتعرف أن أعظم ما جاءك به هو أن يدلّك على عبادة الله وحده.

ومن هذه الزاوية تبدو الآيات كأنها درس في نزاهة الوحي قبل أن تكون تهديداً مفترضاً؛ لقد جعل الله الرسالة أعلى من الجميع، حتى من حاملها البشري، ثم حفظ حاملها من الخيانة في تبليغها. وهذا هو الذي يمنح الوحي قوته الأخلاقية: لا أحد يستطيع أن يوظفه لتقديس نفسه إذا قرأه كما أنزل، لأن النص نفسه يرد الجميع إلى العبودية.

ولذلك فإن أعظم تكريم للرسول ليس أن ننسب إليه ما لم ينسبه الله إليه، بل أن نحفظ له مقامه الذي اختاره له ربه: عبدٌ ورسولٌ كريم، لا يقول على الله إلا ما أوحى إليه، ولا يجعل من ذاته محور الدين، وإنما يقود القلوب إلى الله.

لقد عاش صلى الله عليه وسلم أمام الوحي لا فوقه، وتلقى الأمر كما تلقاه الناس لكن بخصوصية النبوة والتكليف، وكان أول من يحمل ثقله في حياته، وأول من يقوم به، وأول

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

من يخضع لمقتضاه. ومن هنا كانت سنته بياناً للرسالة وامثالاً لها، لا خروجاً على أصل العبودية.

وإذا أمعنا النظر في ترتيب السورة رأينا جمالاً آخر: قبل قليل قال الله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والآن يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾؛ فالمصدر رباني، والحفظ رباني، والرسول أمين في التبليغ، فلا يبقى للمكذب إلا أن يواجه النص نفسه، لا أن يهرب إلى دعوى أن المبلِّغ اخترعه أو مزجه بكلامه.

وهنا يصل اليقين بالقرآن إلى مرحلة شديدة القوة: الذي بين يديك ليس كلام شاعر، ولا قول كاهن، ولا صناعة نبي من عند ذاته، بل كلام نزل من رب العالمين، وحمله رسول أمين، وتولى الله صيانة مقام البلاغ من أن يدخل فيه التقول.

فكيف ينبغي أن تستقبل كتاباً بهذه الصفة؟

ليس كصوتٍ بين أصوات.

ولا كنصيحة قابلة لأن تتبعها إن ناسبت مزاجك.

ولا كتراث جميل يكفي أن تذوق لغته.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

بل كلام الله الذي يدخل على حياتك بحق التصحيح والحكم والهداية.

ومن هنا تنتقل المسؤولية من الرسول إلى القارئ؛ إذا كان الرسول لم يملك أن يزيد في الوحي حرفاً من عنده، فليس للقارئ أن ينقص من سلطان الوحي على حياته ما لا يوافقه. قد لا يغيّر النص بلسانه، لكنه قد يحاول تغييره في التطبيق؛ يأخذ منه ما يوافق هواه ويترك ما يشق عليه، ثم يعيش وكأن القرآن هو الذي تغير، مع أن الذي تبدل هو مقدار استجابته. والصدق مع القرآن يبدأ حين تسمح له أن يفاجئك، ويصححك، ويعارض بعض ما ألفته، لا حين تبحث فيه فقط عما يثبت أنك كنت محقاً منذ البداية.

فالكاتب الذي لا يستطيع الرسول أن يتقول فيه من عنده، لا يليق بنا أن نجعله صدىً لأهوائنا من بعده.

ثم إن هذه الآيات، مع شدتها، تحمل تحتها طمأنينة عظيمة: الله يتولى أمر كتابه. ومن تولى حفظ أصل الرسالة وقداسة نسبتها إليه، لا يضع من طلب هداها بإخلاص. يبقى على العبد أن يقرأ بقلب لا يتلاعب بالنص، وأن يفرّق بين كلام الله وتفسيره البشري، وأن يسأل عن المراد لا عن الحيلة التي تخرجه من مقتضاه.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وما أكثر ما يحتاج قارئ القرآن إلى هذا الأدب: أن يقف أمام النص متعلماً لا متحكماً، وأن يقول في داخله: يا رب، أرني مرادك، ولا تجعلني أقرأ كلامك لأستخرج منه ما يشبهني فقط.

إن الوحي أمانة عند المبلِّغ، وهو أمانة كذلك عند المتلقي.

الأول مأمور أن لا يزيد.

والثاني مأمور أن لا يحرف المعنى طلباً للهوى.

وبين الأمانتين يبقى القرآن كما أراده الله: تذكرة لمن يخشى، وحجة على من يعاند.

ولهذا ستأتي الآيات التالية لتصف القرآن بما يصنعه في الناس؛ فهو تذكرة للمتقين، وحسرة

على من كذَّب به، ثم ترتفع السورة إلى كلمتها المعرفية الأخيرة: ﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾.

بعد أن حُسم مصدر الكتاب وأمانة مبلغه، لم يبق إلا أن يظهر موقف القلب منه.

فالقرآن لا يكشف فقط حقيقة الحاقة؛ إنه يكشف قارئه أيضاً.

الفصل العاشر

حَقُّ الْيَقِينِ

حين يصبح القرآن نفسه شاهداً على مصير قارئه

﴿وَأَنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

بعد أن أثبتت السورة أن القرآن تنزيل من رب العالمين، ونزّهته عن الشعر والكهانة، وقررت أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه حتى لم تترك احتمالاً لأن يكون قد أدخل فيه من عند نفسه شيئاً، تصل الآن إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة: لم يعد السؤال ما مصدر القرآن، فقد حُسم المصدر، ولم يعد السؤال هل المبلّغ أمين، فقد حُسمت الأمانة؛ وإنما بقي السؤال الذي لا يستطيع قارئ أن يهرب منه: ماذا يصنع هذا القرآن بي؟ فالكلام الواحد ينزل على القلوب، لكن القلوب لا تستقبله على صورة واحدة؛ قلب يفتحه الخوف من الله فيتحول الوحي فيه إلى تذكرة وحياة، وقلب يغالبه الهوى حتى يقف أمام الوحي معانداً، فيصبح الكتاب الذي كان يستطيع أن ينجيهِ يوماً مادة حسرة عليه.

تعود كلمة التذكرة مرة أخرى؛ فقد مرّت بنا عند سفينة نوح: ﴿لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرَةً وَتَعْيِبَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾، ثم تأتي هنا لتصف القرآن كله. وما أجمل هذا التكرار البنائي؛ فكما أراد الله من حادثة الطوفان أن لا تبقى خبراً في الماضي بل تتحول إلى معنى حي في الوعي، كذلك القرآن كله ليس كتاب معلومات يضاف إلى الذاكرة، وإنما قوة تذكير تعيد الإنسان مرة بعد مرة إلى الحقائق التي يحاول ضجيج الدنيا أن يطمرها في داخله.

فالإنسان لا يضل دائماً لأنه لم يعرف، بل كثيراً ما يضل لأنه نسي ما عرف. يعرف أن العمر قصير ثم يعيش كما لو أنه لا ينتهي، ويعرف أن الرزق من الله ثم يذل نفسه لأجله، ويعرف أن الموت آت ثم يؤجل إصلاح ما بينه وبين ربه، ويعرف أن المال لا يبقى ثم يتعامل معه كأنه ضمانه النهائي. وهنا تأتي وظيفة التذكرة: لا تضيف إلى العقل خبراً فقط، بل توقظ المعرفة من غفلتها حتى تعود فاعلة في السلوك.

والقرآن، من هذه الزاوية، ليس كتاباً تقرؤه مرة ثم تقول: عرفت موضوعه؛ لأنك أنت نفسك تتغير، وتنسى، وتضعف، وتتراكم عليك طبقات الحياة، فتحتاج إلى أن يعيدك الوحي إلى النقطة الأصلية مرة بعد مرة. ولعل من أسرار تكرار القصص والمواعظ في القرآن أن

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةُ

الإنسان ليس آلةً تحفظ المعنى ثم تبقى ثابتة عليه؛ قلبه يتقلب، ولذلك يحتاج إلى تذكير متجدد بحقيقة ثابتة.

لكن الآية خصّت أثر التذكير بالمتقين: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾. وليس معنى ذلك أن القرآن لا يخاطب غيرهم، بل أن التقوى هي الحالة الداخلية التي تجعل القلب قابلاً لأن ينتفع بالتذكير. فالمطر واحد، لكن الأرض تختلف؛ أرض تفتحت تربتها فشربت، وأرض صلبة جرى الماء فوقها ولم يدخل. وكذلك القلوب؛ قد يسمع اثنان الآية نفسها، فيبكي أحدهما وتزيد الآخر خصومة، لا لأن في الآية نقصاً، بل لأن موضع الاستقبال مختلف.

والتقوى هنا ليست كمالاً سابقاً على القرآن؛ بل هي خوف صادق من الله، واستعداد لأن يخضع القلب إذا ظهر له الحق. صاحب التقوى قد يكون مقصراً، لكنه لا يريد أن يجعل تقصيره حجة على النص؛ إذا سمع الآية التي تكشف عيبه تألم منها ثم حاول أن يصلح، أما المعاند فيحاول أن يصلح معنى الآية حتى لا يحتاج إلى إصلاح نفسه.

وهذا فارق هائل بين قارئين.

أحدهما يدخل القرآن وهو يسأل: ماذا يريد الله مني؟

والآخر يدخله وهو يسأل: كيف أجعل ما أريد أنا مقبولاً فيه؟

الأول طالب هداية.

والثاني طالب تبرير.

والتذكرة لا تؤتي ثمرتها إلا حيث بقي في القلب تواضع يسمح للحقيقة أن تكون أكبر من الهوى.

ومن هنا نفهم أن التقوى ليست مجرد خوف عاطفي، بل أدب معرفي أيضاً؛ أن لا تجعل نفسك الحكم الأعلى على الوحي، وأن تعرف أن عقلك مكرم لكنه محدود، وأن تجربتك مهمة لكنها ليست مقياس الوجود كله، وأنتك حين تقف أمام كلام الله تقف لتتعلم وتبصر، لا لتمنحه شرعية من عندك.

ثم تأتي الآية التالية بواقعية لا تجامل:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾.

إن الله يعلم أن هذا القرآن، مع بيانه، ومع قوة حجته، ومع صدق رسوله، لن يستجيب له كل من يسمعه. وهذه الحقيقة وحدها تضع للداعية ولل كاتب ول من يحمل كلمة الحق ميزاناً يحفظه من الانكسار ومن الغرور معاً؛ فالحق لا يقاس بعدد من استجاب له، كما أن رفض الناس له لا يعني صاحبه من حسن البلاغ.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

قد يكون الإنسان صادقاً ولا يصدقه بعضهم.

وقد تكون الحجة ظاهرة ويكابر أمامها آخرون.

وقد يبلغ الوحي من البيان منتهاه ثم يبقى في الناس مكذبون.

فليس وجود المعارض دليلاً بذاته على خطأ الحقيقة، كما أن كثرة الأنصار ليست برهاناً كافياً على صحتها.

وهذا يحرر صاحب الحق من نوع من العبودية شديد الخفاء: عبودية الاستجابة البشرية. ربما يبدأ الإنسان مخلصاً، ثم يتحول نجاحه عنده إلى عدد من يصفق، وحجم من يتفاعل، وكثرة من يثني، فإذا لم تقع الاستجابة ظن أن المعنى قد فشل أو أن قيمته الشخصية قد سقطت. وسورة الحاقة تضعه أمام حقيقة أكبر: القرآن نفسه - وهو تنزيل من رب العالمين - علم الله أن من الناس من سيكذب به.

وظيفة البلاغ أن تكون أميناً، لا أن تملك القلوب.

والقلوب ليست أرضاً تحت سلطانك حتى تضمن ثمرتها؛ عليك البيان، وعلى الله الهداية.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

لكن هذه الآية لا تعطي المكذب راحة في تكذيبه؛ فإن علم الله به لا يعني قبوله، بل يهيئ

للآية التالية التي تكشف ماذا سيصير هذا التكذيب عندما تبدل الدنيا إلى حاقة:

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

القرآن الذي كان تذكرة للمؤمنين يصبح حسرة على الكافرين.

النص نفسه.

الفرصة نفسها.

الكلمات نفسها.

لكن النهاية تختلف باختلاف الموقف منها.

وهذه من أكثر حقائق الحياة رهبة: أن النعمة التي لم تنتفع بها قد تتحول في ذاكرتك إلى ألم؛

لأنها تغيرت، بل لأنك أدركت متأخراً مقدار ما أضعت منها. والقرآن يوم القيامة

حسرة على من كفر به لأنه سيكتشف أن الطريق كان ظاهراً أمامه، وأن الكلمات التي سخر

منها كانت تحمل نجاته، وأن الكتاب الذي أهمله كان يصف له النهاية قبل أن يصل إليها.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وأشد الحسرات ليست دائماً أن تفقد شيئاً لم يكن في قدرتك، بل أن تفقد ما كان قريباً منك، وما كان تستطيع أن تأخذه ثم أعرضت عنه.

أن يعطش إنسان في صحراء بلا ماء ألم.

لكن أن يموت عطشاً والنهر إلى جواره، ثم يكتشف أنه كان قادراً أن يشرب، فهذه حسرة.

وهكذا يكون القرآن على من كفر به؛ لم يُحرم من الرسالة، بل جاءت الرسالة إليه ثم رفضها. وكم سيكون مؤلماً أن يقف صاحب الشمال أمام كتاب أعماله، ثم يتذكر أن كتاب الله كان بين يديه في الدنيا يخبره كيف يكتب كتاباً آخر.

كتاب كان بين يديه ليصلح كتابه الذي سيؤتاه.

لكنه ترك الأول حتى جاء الثاني بما لا يحب.

وهنا تتجلى العلاقة المدهشة بين المصحف والكتاب يوم القيامة: القرآن كتاب تقرؤه الآن، وكتاب الأعمال كتاب ستقرؤه هناك؛ ومن أحسن قراءة الأول أحسن بإذن الله كتابة الثاني. وكأن الله أعطاك في الدنيا كتاب الهداية قبل أن يعطيك في الآخرة كتاب الحساب.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

فأي رحمة أكبر من أن تعرف معيار الكتاب قبل أن تستلمه؟

تعرف أن الإيمان عظيم.

وأن المسكين ليس هامشاً.

وأن المال لا يغني.

وأن السلطان يهلك.

وأن الخافية ستظهر.

وأن الأيام ستخلو.

كل ذلك قيل لك قبل أن يقال: خذ كتابك.

ولهذا فالإعراض عن القرآن ليس مجرد تفويت ثقافة روحية؛ إنه إعراض عن دليل المصير.

ويمكن للحسرة أن تبدأ حتى في الدنيا؛ كم من إنسان ابتعد عن هداية ثم بعد سنوات عرف

أن كلمة واحدة لو استجاب لها يوم سمعها لأعفته من طرق كثيرة من الألم. هناك ندم

دنيوي يمكن إصلاح ما بعده، أما حسرة الآخرة فهي إدراك للحقيقة بعد إغلاق باب

العودة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ولهذا ينقل القرآن لنا الحسرة الآن حتى لا نعيشها هناك.

كل آية وعيد هي في زمن الدنيا رحمة استباقية.

وكل مشهد من النار رسالة إلى من لم يدخلها بعد: الطريق ما زال يمكن تغييره.

وكل «يا ليت» في القرآن هدية لمن لا يزال يستطيع أن يقول بدلاً منها: يا رب تبت.

ثم ترتفع السورة إلى كلمة تكاد تجمع كل ما بدأت به:

﴿وَأَنَّهُ لَحَقَّ الْيَقِينُ﴾.

هنا يعود الحق الذي بدأت به السورة في اسم الحاقة. وكأن الرحلة كلها دائرة تبدأ بالحق وتنتهي باليقين به. لم يكن ما سمعته تخويفاً تخييلياً، ولا مشاهد وعظية يراد بها التأثير وحده، بل هو حق اليقين.

ولليقين في القرآن مراتب يتأملها العلماء من خلال تعبيراته المختلفة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، والعبارة هنا تبلغ أقصى درجات الرسوخ، حتى كأن الحقيقة لم تعد شيئاً تعرفه من الخارج، بل شيئاً يملأ القلب فلا يبقى فيه موضع لشك ينازعه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وحق اليقين ليس زيادة لفظية على كلمة اليقين، بل تأكيد على أن ما أخبر به القرآن في هذه السورة ليس قريباً من الحقيقة أو محتملاً لها؛ هو الحق الثابت الذي ينبغي أن يبني عليه العمر.

وهنا يأتي السؤال الأخطر: ما قيمة يقين لا يغير شيئاً؟

لو أيقنت أن ناراً خلف باب فلن تفتحه مستهيناً.

ولو أيقنت أن طريقاً يهوي إلى هاوية ستغير اتجاهك.

فإذا قال الإنسان إنه موقن بالحساب، ثم لا يترك لهذا اليقين أثراً في ظلمه وماله ولسانه وخلواته، فهناك مسافة بين اليقين الذي يعترف به واليقين الذي يحكمه.

وسورة الحاقة تريد أن تغلق هذه المسافة.

أن تنتقل القيامة من العقيدة المكتوبة إلى هندسة القرار اليومي.

أن تدخل في طريقة كلامك قبل أن تنطق.

وفي طريقة خصومتك قبل أن تظلم.

وفي جمعك للمال قبل أن يقال: ما أغنى عني ماليه.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وفي بحثك عن المكانة قبل أن يقال: هلك عني سلطانیه.

وفي نظرتك إلى المسكين قبل أن يُكشف وزن تلك النظرة.

وفي خلواتك قبل أن يأتي اليوم الذي لا تخفى فيه خافية.

إن حق اليقين ليس أن تتحدث كثيراً عن الآخرة، بل أن تصبح الآخرة حقيقةً صامته تحرسك حين لا يراك أحد.

وهذا النوع من اليقين يهب الإنسان قوةً أخلاقية نادرة؛ لأن معظم الانحرافات تنمو في اللحظة التي يبدو فيها الباطل مفيداً والحق مكلفاً. هنا يتدخل اليقين ليقول: أنت ترى جزءاً صغيراً من النتيجة، وهناك بقية لا تراها. قد تخسر مالاً لأنك قلت الحق، لكن القصة لم تنته. قد يفوز ظالم بموقف، لكن القصة لم تنته. قد تصبر على طاعة ولا تجد ثمرتها في الدنيا، لكن القصة لم تنته.

الحاقة هي الجزء الذي يمنعك من الحكم على القصة قبل نهايتها.

ومن عرف أن النهاية حق اليقين استطاع أن يتحمل كثيراً من غموض منتصف الطريق.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وهنا تنفتح الآية على معنى عظيم في السكينة: اليقين بالآخرة لا يصنع فقط الخوف من الحساب، بل ينقذ القلب من الحاجة إلى أن يرى العدالة كاملة الآن. قد تموت قضايا دون أن ترى حكمها في الأرض، ويغادر مظلوم دون إنصاف ظاهر، لكن حق اليقين يقول إن الموت لا يغلق الملف عند الله.

وما دام هناك حاقة، فليس التاريخ الأرضي هو المحكمة الأخيرة.

وليس الرأي العام آخر القضاة.

وليس انتصار الأقوى خاتمة الحقيقة.

هذه الرؤية تجعل المؤمن أكثر قدرة على العمل بلا يأس، لأنه يعرف أن عليه أداء ما يستطيع، وأن تمام الميزان عند الله.

ثم، بعد أن بلغت السورة هذه القمة من اليقين، كان يمكن أن تنتهي عند تقرير معرفي: وإنه لحق اليقين. لكنها لا تفعل؛ لأن القرآن لا يريد للمعرفة أن تموت في الرأس. يأتي الأمر الأخير:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

وهنا يتغير كل شيء.

من الخبر إلى العبادة.

من المعرفة إلى الذكر.

من الحاقة إلى التسبيح.

كأن السورة تقول: بعدما عرفت، اعبد.

فالغاية من معرفة القيامة ليست أن تصبح خبيراً بمشاهد الآخرة، بل أن يزداد قلبك تعظيماً لله.

والغاية من معرفة سقوط عاد ليست جمع أمثلة تاريخية، بل أن يسقط من قلبك استبارك.

والغاية من مشهد صاحب اليمين ليست الاستمتاع بصورة النجاة، بل أن تعمل لها.

والغاية من صاحب الشمال ليست رعباً عابراً، بل أن تنجو من طريقه.

والغاية من تقرير صدق القرآن ليست الانتصار في مناظرة، بل أن تنخي للحق الذي جاء به.

ولهذا كان التسبيح هو الجواب الأخير.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

والتسبيح تنزيهه لله عن كل نقص؛ تنزيهه عن أن يخلف وعده، أو ينسى عملاً، أو تضيع عنده مظلمة، أو يعجزه بعث، أو يفلت من حكمه قوي، أو يختلط عليه سر بعلن. فإذا قرأت كل ما سبق ثم سبّحت، فقد تحولت المعرفة إلى عبودية.

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

ليس رباً بعيداً عنك، بل ربك؛ الذي خلقك، وربّك بالنعم، ثم لم يتركك تمشي نحو الحاقة جاهلاً، بل أنزل إليك الكتاب قبل الحساب. ومن أعظم معاني الربوبية في هذه السورة أن الله لم يترك الإنسان لمصيره بلا بيان؛ عرّفه أين الطريق، وأراه نموذج الساقطين، ونموذج الناجين، وشرح له ماذا يبقى وماذا يهلك، ثم قال له في النهاية: فسيح باسم ربك.

والإضافة ربك فيها قرب بعد كل جلال السورة؛ رب السماوات التي ستنشق هو ربك، ورب العرش العظيم هو الذي خاطبك وعلّمك، ورب الحاقة هو الذي فتح لك باب النجاة قبلها.

ثم تختم بالكلمة التي سبق أن ظهر ضدها سبب الهلاك:

﴿الْعَظِيمِ﴾.

في صاحب الشمال قالت السورة: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وفي خاتمتها تقول: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

وهذه ليست مصادفة لفظية؛ إنها تكاد تكون مفتاح السورة كلها.

صاحب الشمال اختل عنده التعظيم.

والعبد الناجي يُرد إلى التعظيم.

فن الذي كان عظيماً في قلبك؟

هذا السؤال قد يلخص كثيراً من مصير الإنسان.

إن كان المال عظيماً إلى درجة أنك تخالف الله لأجله، فقد تجاوز حجمه.

وإن كان السلطان عظيماً حتى يسلب منك العدل، فقد تجاوز حجمه.

وإن كان البشر عظماء في قلبك إلى درجة أن تخشى رضاهم وغضبهم أكثر من ربك، فقد

اختلت المقاييس.

وإن كانت نفسك عظيمة عندك حتى ترفض الاعتراف بخطئها، فقد دخل إليها شيء من

داء الأمم الأولى.

أما حين يكون الله العظيم حقاً، تعود كل الأشياء إلى أبحارها.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لا تختفي قيمتها، بل تتحرر من التأليه الخفي.

يصير المال أداة.

والسلطان أمانة.

والناس أجبَةً أو خصوماً، لكنهم مخلوقون.

والنفس عبداً يحتاج إلى مغفرة.

والدنيا أياماً خالية ستنتضي.

والآخرة حق اليقين.

وهنا يصل القلب إلى سكونه لا تأتي من ثبات الأشياء، بل من ثبات المرجع حين تبدل

الأشياء. الأرض ستدك، والسماء ستنشق، والمال سيذهب، والسلطان سيهلك، لكن الله

هو العظيم الذي لا يلحقه زوال.

ولذلك كانت نهاية السورة تسبيحاً لا صراخاً؛ بعد أن تهدمت صور العالم، يجد المؤمن مرزاً

لا ينهدم.

إن الخوف وحده لا يبني القلب.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

لا بد أن ينتهي الخوف إلى معرفة من يُخاف ويرجى ويعبد.

والسورة بدأت بلفظة زلزلة الوجود: ﴿الْحَاقَّةُ﴾.

وتنتهي باسم يثبت القلب أمام زلزلة الوجود: ﴿الْعَظِيمُ﴾.

بين الكلمتين تقع رحلة الإنسان كلها.

في البداية يسأل: ما الحاقة؟

وفي النهاية يعرف الجواب العملي: عظم الله.

لأن الذي عظم الله لم يعد يستطيع أن يعظم الدنيا فوق قدرها، ومن لم يعظم الدنيا فوق

قدرها استطاع أن يترك الحرام، وأن يصبر على الفقر، وأن يرحم المسكين، وأن يحتمل أن

لا يصفق له الناس، وأن يعيش الأيام الخالية وهو يرى وراءها اليوم الباقي.

وهكذا يصبح التسبيح خاتمة منسجمة مع كل مشهد سبقها:

حين ترى عاداً صرعى: سبحان الله العظيم.

حين ترى فرعون مأخوذاً: سبحان الله العظيم.

حين يطغى الماء وتجل السفينة: سبحان الله العظيم.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

حين تُدَكُّ الأرض والجبال: سبحان الله العظيم.

حين تنشق السماء: سبحان الله العظيم.

حين يفرح صاحب اليمين: الفضل لله العظيم.

وحين يقول صاحب الشمال: هلك عني سلطانيه، تعرف أن السلطان الحقيقي لله العظيم.

وحين يثبت أن القرآن تنزيل من رب العالمين، تعرف أن العظيم لم يتركك بلا كلام يهديك.

ثم ينتهي كل هذا إلى أمر بسيط في لفظه، واسع في أثره:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

كأن السورة لا تريد منك بعد قراءتها أن تغلق المصحف وتعود الشخص نفسه.

تريد أن يسقط شيء فيك.

وأن يقوم شيء.

يسقط وهم البقاء.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

وهم القوة.

وهم المال.

وهم السلطة.

وهم الستر الدائم.

ويقوم بدلها تعظيم الله.

فإذا وقع هذا التحول، فقد دخلت الحاقة إلى القلب قبل أن تقع في الكون.

وهذه هي النجاة الكبرى: أن تتكشف لك الحقيقة الآن، حتى لا تفاجئك حين تتكشف

للخلق جميعاً.

الخاتمة

حين يسقط كلُّ شيء ويبقى الحق

حين تنتهي سورة الحاقة لا يشعر القارئ أنه خرج من اثنتين وخمسين آية فحسب، بل كأنه

خرج من عالم دخل إليه وهو يظن الأشياء على غير أبعادها، ثم ردها القرآن أمام عينيه إلى

مقاديرها الحقيقية؛ فقد كانت القوة في أول الطريق تبدو كبيرة، فإذا عاد وشمود خبر بعد

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

عين، وكان السلطان يملأ الأفق فإذا فرعون مأخوذ، وكانت الأرض أرسخ ما يعرفه الإنسان فإذا هي محمولة مدكوككة، وكانت السماء سقفاً لا يخطر للقلب أن يلحقه وهن فإذا هي يومئذ واهية، وكان المال وعداً بالأمان فإذا صاحبه نفسه يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾، وكانت السلطة توهم صاحبها بأنه يمسك مصائر الآخرين فإذا به يعترف: ﴿هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾؛ وفي كل مشهد كانت السورة تنتزع من القلب صمماً، حتى لا يبقى في نهاية الطريق عظيمٌ على الحقيقة إلا الله.

ولهذا لم تكن الحاقة اسماً ليوم القيامة فحسب، بل كانت مفتاحاً لفهم السورة كلها؛ إنها اليوم الذي تحق فيه الأشياء على حقيقتها، فلا يبقى باطل قادراً على استعارة اسم الحق، ولا ظلم قادراً على الاحتماء برواية صاحبه، ولا إنسان قادراً على إدارة صورته كما كان يفعل في الدنيا. نحن هنا نستطيع أن نختار ما نظهره من أنفسنا، وأن نضع للناس أبواباً يروننا منها، وأن نخفي وراء الأبواب ما نشاء، لكن الحاقة هي يوم انهدام العمارة التي بنيناها بين الظاهر والباطن: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

ولعل هذه الآية من أعمق مفاتيح السورة أخلاقياً؛ لأن القيامة قبل أن تكون انهيئاً للكون هي انهيئاً لقدرة الإنسان على التخفي. قد تنشق السماء، ولكن الأخطر على الروح أن تتكشف هي؛ وقد تدك الجبال، ولكن ما يقرر مصيرك ليس دك الجبل الذي خارجك،

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

بل ما وجد الله في القلب الذي حملته بين جنبيك. وهنا يعيد القرآن توجيه الخوف: ليست المشكلة أن تعرف كم سيكون المشهد هائلاً فحسب، وإنما أن تسأل نفسك ماذا سيظهر منك حين تنتهي كل إمكانية للمستمر.

ومن أجل هذا كانت السورة شديدة العناية بـ الكَّاب؛ لأن الإنسان في الدنيا يكتب ذاته قبل أن يُعطى كُتَّابه. كل يوم يمر ليس زمناً محايداً، بل صفحة تتحول بالتدرج إلى ماضٍ مغلق، وما نسميه «الحياة» ليس في جانب منه إلا عملية كُتَّابة مستمرة للسيرة التي سنلقاها مرة أخرى. وهناك يبلغ التفاوت بين الإنسانين غايته؛ واحد ينظر إلى حياته بعد أن صارت كُتَّاباً فيقول في فرح لا يخشى بعده انكشافاً: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ﴾، وآخر لا يحتمل أن يواجه ذاته المكتوبة فيصرخ: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ﴾.

وما بين العبارتين تقع حياة كاملة.

بين اقرؤوا كُتَّابه ويا ليتني لم أوت كُتَّابه تقع الكلمة التي تقولها ثم تنساها، والمال الذي يدخل يدك فتقرر أين تضعه، والإنسان الضعيف الذي يمر بك، والحق الذي تستطيع رده أو أكله، والخلوة التي لا يعلم بها أحد، والتوبة التي تؤجلها أو تبادر إليها، والظلم الذي تستطيع أن تتراجع عنه قبل أن يتحول إلى سطر لا تستطيع أن تحوه بنفسك.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

إن القرآن يجعل الآخرة قريبة لا بإلغاء المسافة الزمنية، بل بإظهار أن مواد الآخرة تُصنع الآن.

كتابك هناك يُكتب هنا.

وفرحتك هناك لها جذور هنا.

وحسرتك هناك - إن لم يتداركك الله برحمته - تبدأ من اختيارات تبدو الآن صغيرة.

ولهذا كان صاحب اليمين حين أراد أن يفسر سعادته لم يتحدث عن عبقرية خاصة فيه ولا

عن بطولات خارقة، بل ردّ الأمر إلى حقيقة سكنت قلبه: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ

حِسَابِيَةٍ﴾. كان الحساب حاضراً في وعيه قبل أن يحضر بجسده أمامه، ولذلك استطاع أن

يجعل المستقبل الأخروي يشارك في صناعة القرار الديني؛ رأى وراء اللذة سؤالا، ووراء

الظلم ميزانا، ووراء العمر نهاية، فصار يقينه حارساً خفياً لأيامه.

ثم جاءت العبارة التي تستطيع وحدها أن تهوّن على المؤمن تعباً كثيراً: ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

ما نعيشه الآن بكل ثقله سيصبح يوماً «الأيام الخالية».

هذا الألم.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

هذه الخصومة.

هذه الحاجة.

هذا الصبر الطويل.

هذه الرغبة التي قاومتها.

هذه الدموع التي لا يراها أحد.

هذه المرحلة التي توهم أحياناً أنها الحياة كلها.

كلها ستصبح يوماً شيئاً قد مضى.

وهنا تكشف السورة سرّاً من أسرار الصبر: أن تعرف أن الحاضر - مهما تضخم في إحساسك

- ليس أبدياً. بعض الأحزان يزداد ألمها لأن النفس تتخيل أنها لن تنتهي، فإذا أضاء القرآن

أمامها نهاية الطريق استطاعت أن تحمل ما لم تكن تستطيع حمله وهي محبوسة داخل اللحظة.

ولذلك فإن الآخرة لا تسلب الإنسان حياته، بل تعيد له حريته من استبداد اللحظة. من

عرف أن الأيام خالية استطاع أن يقول للشهوة: ستزولين. وللخوف: ستمرن. وللفقير: لست

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

الحكم الأخير. وللقوة الظالمة: لن تبقي. وللنعمة كذلك: لا تغربي، فأنت أمانة قبل أن تكون متاعاً.

ثم تنتقل السورة من المصير الشخصي إلى جذر المسألة، فتضع أمامنا آيتين قصيرتين تكادان تلخصان تصوراً كاملاً للدين: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾. هنا يرفض القرآن فصل العقيدة عن الرحمة؛ فالإيمان بالله العظيم لا يستطيع أن يبقى فكرة مرتفعة في الذهن لا تنزل إلى الأرض، لأن من عرف الله وعرف فقره إليه يرى المسكين بعين مختلفة، ويرى المال أمانة، ويرى الضعف البشري موضعاً للرحمة لا للاحتقار.

إنه ترتيب بالغ الدلالة: فساد التعظيم في القلب يظهر قسوةً في المجتمع. فإذا لم يكن الله عظيمًا حقًا في الداخل، تعاظمت النفس، وتعاظم المال، وتعاظمت المكانة، وصغر المسكين حتى يكاد لا يُرى. أما إذا امتلأ القلب بعظمة الله، صغرت الذات بما يكفي لترى الآخرين، وصار العطاء تواضعاً لا استعلاءً، والرحمة عبوديةً لا استعراضاً.

ولهذا فإن سورة الحاقة لا تدع المؤمن يختبئ خلف التصورات المجردة؛ فهي تسأله بطريقة غير مباشرة: ما أثر يقينك في يدك؟ ما أثر تعظيمك لله في نظرتك إلى الضعيف؟ ما قيمة عقيدة

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ

القيامة إذا لم تمنعك من ظلم إنسان تستطيع ظلمه؟ وما معنى أنك تعرف أن كتاباً سيعطى لك إذا كنت تكتب فيه اليوم غير مبال بما ستقرأ؟

ثم، بعد أن أخذتنا السورة إلى أبعد الغيب، أعادتنا إلى القرآن؛ لأن كل هذه المعرفة لم تصعد من عقل الإنسان إلى السماء، وإنما نزلت من السماء رحمةً بالإنسان: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا يظهر القرآن في سورة الحاقة لا باعتباره موضوعاً إضافياً في نهايتها، بل باعتباره سبباً في إمكان النجاة كلها؛ فلولاً أن الله أخبرنا، كيف كنا سنعرف الحاقة؟ وكيف نعرف الكتاب واليمين والشمال؟ وكيف ندرك أن المال الذي يبدو اليوم قادراً سيقف يوماً عاجزاً؟ وكيف نعرف أن كلمةً على مسكين يمكن أن تتصل بمصير أبدي؟

إن القرآن هو المعرفة التي وصلت إلينا قبل فوات زمن الاستفادة من المعرفة.

وهذه من أعظم نعم الوحي التي قد نغفل عنها: لقد سمح الله لنا أن نقرأ أخبار المستقبل ونحن لا نزال نملك القدرة على تغييره بالنسبة إلى أنفسنا. نستطيع أن نقرأ الآن قول صاحب الشمال: ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ ثم نغلق باباً يقود إلى حسرته. نستطيع أن نقرأ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ﴾ ثم نعيد ترتيب علاقتنا بالمال. نستطيع أن نقرأ: ﴿وَلَا يَخْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ ثم ننظر

سُورَةُ الْحَاقَّةَةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

حولنا. نستطيع أن نقرأ: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ثم نذهب إلى أخفى موضع في نفوسنا ونبدأ إصلاحه.

هذا هو الفرق بين الخبر قبل الحاقة والخبر فيها.

الآن الخبر فرصة.

هناك يصبح مشاهدةً.

الآن يمكنك أن تعمل.

هناك تقرأ ما عملت.

ولهذا كانت الآية: ﴿وَتَعْيَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾ من الكلمات التي تصلح أن تكون عنواناً لطريقة قراءة السورة كلها؛ لأن القضية لم تكن يوماً في كثرة من سمعوا، بل في من وعى. عاد سمعت، وثمود سمعت، وفرعون بلغه الإنذار، والمكذوبون سمعوا القرآن؛ لكن السماع وحده لا يصنع النجاة. الأذن الواعية هي التي تسمح للخبر أن يتحول إلى بصيرة، وللبصيرة أن تنزل إلى القرار.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ولعل أعظم خطريواجه قارئ القرآن ليس أن لا يعرف الآية، بل أن يعتادها حتى لا تعود قادرة على إيقاظه. تمر «الحاقة» على سمعه كما تمر كلمة مألوفة، ويمر «لا تخفى منكم خافية» دون أن يفتش خافيةً واحدة، ويمر «ما أغنى عني ماليه» ثم يرجع إلى عبودية المال، ويمر «حق اليقين» ثم يعيش بقلق من الدنيا أكبر من يقينه بالآخرة.

هناك يكون النص قد دخل الأذن ولم يبلغ موضع القيادة في القلب.

والسورة تريد أكثر من ذلك بكثير.

تريد أن تجعلك ترى العالم مرةً أخرى.

ترى القوة وهي تحمل تاريخ سقوطها.

وترى المال وهو يحمل تاريخ عجزه.

وترى السلطان وهو مؤقت مهما بدا راسخاً.

وترى المسكين لا بوصفه عبئاً على المجتمع، بل امتحاناً أخلاقياً.

وترى الوقت مادةً لكأبك.

وترى السرية على أنها ليست سرّاً مطلقاً.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وترى القرآن على أنه خبر رب العالمين لا أدب يُذوق ثم يترك.

ثم تبلغ بك آخر درجات المعرفة: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾.

وهنا ينتهي الجدل.

الحاقة حق.

والبعث حق.

والحساب حق.

والكتاب حق.

والجنة حق.

والجحيم حق.

والقرآن الذي أخبر بذلك حق.

ولكن سورة الحاقة لا ترضى بأن تغلق كتابها عند كلمة «اليقين» وكأن المطلوب بناء فكرة

مكتملة في الذهن؛ بل تدفع اليقين إلى غايته الطبيعية: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وهذا هو الخيط الذي يجمع البداية بالنهاية كلها.

بدأت السورة بيوم يحق فيه الحق، وانتهت بالرب العظيم.

وبينهما تهاوت كل العظمت الزائفة.

عظمة عاد.

عظمة ثمود.

عظمة فرعون.

عظمة المال.

عظمة السلطان.

عظمة صورة الإنسان لنفسه.

ثم بقي الله العظيم.

وهذه، في جوهرها، رحلة السورة كلها: أن تُخرج من القلب عظمة المخلوق حتى يستقر فيه

تعظيم الخالق.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

فإذا عظم الله في قلبك، لم تعد تحتاج إلى أن تكبر على أحد.

وإذا عظم الله، لم تعد تخشى سلطاناً كما تخشاه.

وإذا عظم الله، لم يعد المال قادراً على شرائك.

وإذا عظم الله، صار المسكين أخاً في العبودية لا شيئاً صغيراً في هامش حياتك.

وإذا عظم الله، أصبحت الخلوة معه أهم من الصورة عند الناس.

وإذا عظم الله، لم تعد الحاقة مجرد مصدر رعب؛ لأنها يوم لقائه والحكم بعدله والنجاة برحمته

لمن آمن واتقى.

وهكذا تنتهي السورة في القلب لا بصوت انهيار العالم، بل بصوت التسبيح.

فبعد كل دكّ وانشقاق وسقوط، هناك شيء لا يهتز.

وبعد كل فناء، هناك من لا يفنى.

وبعد كل سلطان يهلك، هناك ملك لا يزول.

وبعد كل كتاب بشري يتغير، هناك كلام حق من رب العالمين.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

وبعد كل الأفتنة، هناك حقيقة.

وبعد كل الأيام، هناك الحاقّة.

فالسعيد حقاً ليس من استطاع أن يجعل الدنيا دائمة؛ فليس ذلك لأحد، وإنما من عرف زوالها قبل أن تزول، وعرف الحاقّة قبل أن تقع، وعرف عجز المال قبل أن يعجز، وعرف هلاك السلطان قبل أن يهلك، وعرف قيمة الكتاب قبل أن يُعطى إياه، وعرف عظمة الله قبل أن تسقط أمامها عظمت العالم كلها.

إن السورة لا تسألنا في نهايتها أن نعرف متى تأتي الحاقّة.

إنها تسأل السؤال الذي يساوي العمر كله:

حين تأتي الحاقّة، ماذا ستكون قد فعلت بما عرفته عنها؟

فالذي يسمعها الآن لا تزال أمامه مساحة رحمة.

لا يزال قادراً أن يحو بالتوبة ما شاء الله أن يحو.

ويرد الحقوق.

ويصلح السريرة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ | حِينَ تَنْكَشِفُ الْحَقِيقَةُ

ويطعم المسكين.

ويضع المال في جمه.

ويحرر قلبه من سلطان البشر.

ويكتب في الأيام الباقية شيئاً يحب أن يراه حين تصبح جميعها أياماً خالية.

وتلك هي نعمة أن نقرأ الحاقّة قبل أن نراها:

أن يعطينا الله الحقيقة خبراً، قبل أن يعطينا إياها مشهداً.

فيا رب، اجعلنا ممن وعوا التذكرة قبل انقضاء زمن التذكر، ومن عظموك قبل أن تتهاوى

أمام عظمتك عظمت الأشياء، ومن أوتوا كتبهم بأيمانهم فقالوا في أمن وفرح:

﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.